رواية

مفيد النويصر

الوَادْ والعَمْ

Twitter: @abdullah_1395
16.4.2012

ketab.me

Eqla3 Library

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الـواد والعـمّ

روايـة

مفيد النويصر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو اقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-203-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

Twitter: @abdullah_1395

تنـويـــه

الأسماء الواردة في الرواية غير حقيقية
وأيّ تشابه بينها وبين أيّ أسماء واقعية
هو أمر غير مقصود..

المؤلف

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

إهـــداء

أمي..

لا تكفي روايتي هذه..

لا يكفي وجودي كله..

لذا أكتفي بقبلةٍ أطبعها على قدميك.

أستاذي محمد معروف الشيباني..

لقد أخذت بنصيحتك..

كم تبدلت حياتي يا أستاذي الكبير..

وائلتي..

الآن فقط عوضتني الحياة..

أشعر بقوةٍ تأخذني إلى هذا الضوء.. إليكِ يا حبيبتي..

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

البحث عن ضاري

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

- جيب له آيس كريم بالبسكوت وكثرٌ الحليب، تراه يعشق الحليب (الأبيض) موت.

خفض يوسف رأسه في لمح البصر متفادياً صفعتي قبل أن ترتطم كفي التي انطلقت في جزء من الثانية على قفاه، لكنه لم يستطع تفادي ركلتي التي سددتها إلى أسفل ساقه.. صرخ صرخة امتزجت بقهقهاته، بينما الباقون يضعون أيديهم على فمه يكمونه؛ حتى لا تلتفت إلينا أنظار الجالسين على الطاولات المجاورة.

يوسف هو يوسف، لا يتغير أبداً.. كلنا تغيرنا إلا هو.. كلنا نحاول كبح جماح المراهقين الصغار الذين يحاولون إشاعة الفوضى داخلنا وحولنا، إلا يوسف، دائماً كان حنوناً رحيماً بمراهقه الصغير الذي يسكنه.. يقول ما شاء لمن يشاء، ويضحك أينما شاء وكيفما شاء.. لا يفكر أبداً في أنه أصبح أحد رجال الأعمال، وأنه أحد أصحاب الشركات المعروفة، ويسعى حثيثاً لإنشاء شركة أخرى، ولا يفكر كذلك في أننا جميعاً أصبحنا نشغل مناصب مهمة، تفرض علينا أداءً خاصاً مقنعاً لكل من يراقبوننا، ووقاراً بحجم مسؤولياتنا. لا أنكر أن هذا التحفظ كان يعذب أحدنا كثيراً، فلا نزال شباناً صغاراً، منا مَن لم يتزوج بعدُ، ولم يتخطَّ أحدنا حاجز الأربعين، لكننا مضطرون إلى ذلك. فقط يوسف كان يبدأ بكسر الحاجز أو القفز فوقه برشاقة وخفة ظل، عندما يبادر باستفزاز أحدنا بتعليقاته الساخرة، الوقحة أحياناً، التي

Twitter: @abdullah_1395

تفتح الباب لتَخَلِّي الجميع عن حذرهم ووقارهم المصطنع، وخلع الأشمغة وتطويحها في هواء البحر الذي يربض خلف شارع التحلية بشارعين أو يزيد..

تنفتح أبواب شفاهنا بالضحك الجماعي مطلقة العنان لقهقهات المراهقين الصغار الذين يسكنوننا، تخرج أنفاسهم طريةً باردةً، وضحكاتهم قويةً مجلجلةً ناصعة الأسنان، وتعليقاتهم طفوليةً لا تخلو من جرأة..

- صباح: كيف الآيس كريم يا يوسف؟!
- يوسف: يتلحس لحس يا طعم.. (وينفجر بالضحك).

هذه المرة طالت يدي قفا اللعين الذي فقد رشاقته من فرط الضحك، فلم يستطع تفادي الضربة..

- تُفْ عليك.. اللحس (للخكاري)[1] أمثالك.

الشاب الآسيوي الذي أتى بالمشروبات يبتسم لنا وسط هستيريا الضحك التي اعترتنا جميعاً، وكأننا كنا ننتظر مناسبة للضحك. فعلها (الكلب) يوسف وكنت أنا الضحية.. كان عليّ أن أرضخ وأكتفي بلطمة على قفاه أو رفسة في قدمه كلما سنحت لي الفرصة.

الشاب الآسيوي ما زال واقفاً، يواصل تصنُّع الابتسام لزبائنه الثملين من الضحك، إلا أنا بالطبع؛ فليس من المعقول أن أضحك على نفسي..

هؤلاء الشبان الآسيويون اعتادوا أن يضحكوا للجميع، وأن يرضوهم، بأن يقدموا لهم كل ما يجعلهم سعداء، وهم ينفقون بسخاء، حتى إذا استدعى الأمر أن يقدم الآسيوي نفسه لأحدهم آخر الليل، بعدما يكون مفعول المشروبات الكثيرة المترعة بسعرات السكر والشوكولا ومشروبات الطاقة قد سرى في جسده، وأصبح في حاجة إلى تفريغ تلك الطاقة التي تتراكم

---

(1) الخكاري: لفظ عامي يقصد به الشبان الذين يتصفون بالميوعة.

Twitter: @abdullah_1395

حممها عند فوهة بركانه الذي يوشك على الانفجار.

الشبان الآسيويون اعتادوا تقديم خدماتهم لهذا النوع من الزبائن، ما داموا يتقاضون مقابلاً للخدمة، بل ربما عرضوها إذا سنحت فرصة لذلك.

نظر الشاب الآسيوي إليّ على اعتبار أنني الوحيد الذي يبتسم فقط دون قهقهة أو ارتماء على الطاولة؛ على أمل أن أساعده على المرور بالمشروبات بأمان ليضعها على الطاولة، دون أن تسقط من يده بفعل حركة لا إرادية من أحد الحمقى الثملين الذين أجلس معهم..

- تعال من هنا.. ونزل الطلبات..

- يوسف (بخبث): إيه تعال.. سامي يبغاك تنزل عنده (وتنطلق من فمه ضحكة رقيعة).

الحمار يفعلها ثانية.. وكريزة الضحك تزداد ويعلو صخبها، حتى بدأ كثيرون ممن حولنا يسترقون الطرف إلى الطاولة التي نجح الغبي يوسف في أن يجعل وقارها (يطيح) على أرض رصيف المقهى محدثاً دويّاً أثار انتباه الجميع.

- صباح.. علي.. محمد.. خلونا نجلس داخل المحل.. ترى الناس أكلونا بعيونهم.. يللا يا شباب.. يوسف.. يا حمار.. قوم ندخل جوا.

انتقل الجميع بضحكهم وضجيجهم إلى الداخل وتبعنا الشاب الآسيوي بالمشروبات.. سبقنا إلى الطاولة قبل أن يعاودهم الهياج. وضع المشروبات، وابتسم لنا ابتسامة أنثوية رقيقة، وخرج يتهادى برشاقة فتاة تخرج للتوّ من حمامها، محكمة شرشفها حول جسدها النحيل، تقارب خطى قدميها؛ حتى يتسنى لها المشي في شرشفها المحكم. يوزع ابتساماته على الطاولات؛ حتى يحث فيهم رغبة مناداته لطلب المزيد من المشروبات.

Twitter: @abdullah_1395

داخل المقهى هدأ الرفاق كثيراً.. عاد المراهقون الذين يسكنونهم أدراجهم، وأوصدوا خلفهم شفاههم التي أرهقتها نوبة الضحك الهستيري التي توقفت أخيراً.. يبدو أن هواء البحر القريب، ومشهد الفتيات الرائحات والغاديات، والفتيان والفتيات، والأسواق، والسيارات، هذا كله فتح الباب لفورة المراهقين، ورغبتهم في ممارسة العبث على طاولتنا التي تجاوزت الثلاثين، وربما تجاوزتها بكثير.

داخل المقهى كان الصمت يحكي حكايته للجالسين من رواد المكان، والجميع يصغون له في هدوء وسكينة.. فمن يعبث في جواله، ومن يتصفح حاسوبه المحمول.. ومن يطالع بعض الأوراق التي في يديه.. إلا فتى كان يجلس في الركن المقابل لطاولتنا بعيداً عنا بعض الشيء، فوق كرسيّ مرتفع أشبه بكراسيّ البارات التي كنت أشاهد بعضهم في لندن يمضون أمسيتهم عليها يشربون الخمر حتى الغيبوبة، أو تنتشل أحدَهم إحداهن ثم يختفيان معاً، تاركين مقعدين فارغين لآخرَين.

انشغال رفاقي الذين عادوا مرة أخرى داخل المقهى رجالَ أعمالٍ وموظفين مهمين بأحاديثهم الجانبية عن أشغالهم ومسؤولياتهم وهمومهم، جعل مراقبة الفتى خياراً وحيداً أمامي، حتى يعود إليّ رفاقي من أحاديثهم. الفتى كان لافتاً للنظر بالنسبة إليّ إلى حد بعيد، بيد أن أحداً ممن أجلس معهم أو من الآخرين في المكان لم يعرهِ اهتماماً، وكأن الأمر اعتياديّ بالنسبة إليهم.. هل إلى هذا الحد تبدّل حال مدينتي؟! جدة منذ زمان بعيد تفتح أحضانها لجميع الأجناس واللغات والوجوه، تستقبل ثقافات الجميع وتتعاطى معها بحب، حتى يذوب الجميع في الأخير في نسيج واحد، هو جدة، اللوحة البديعة التي يمكنك مراقبة جميع الخطوط والألوان على مشهدها الإنساني والمكاني البديع.. جدة.. فسيفساء بشرية موقعة بلغات كل الأمم.. جدة الجريئة، التي يستطيع فتيانها وفتياتها التلصص واستراق الطرف بعضهم إلى بعض على كورنيشها وفي أسواقها دون غيرها من مدن

Twitter: @abdullah_1395

وطني..

آخر ما عهدته في مدينتي قبل أن تغيبني شوارع لندن عنها استعراض الفتيات رشاقتهن خلف عباءاتهن، وإبداء زينة غطاء الرأس الذي كان بإمكان أحدنا أن يخمن من خلال النظر إليه وإلى بنطال الجينز الذي ترتديه إحداهن تحت العباءة وحذائها، مدى أناقتها.. هذا بالنسبة إلى غالبية السعوديات، أما الأجنبيات من الفتيات فكانت وجوههن المكشوفة تمنحنا إذناً مسبقاً بالتطلع في وجوههن، وربما الفوز بموعد على الشاطئ.

لكنني الآن أجلس أمام شيء مختلف جداً.. فتى خاص.. انتابني شعور قويّ أنه اختار هذا المقعد المرتفع رقيق المسند؛ حتى يتمكن من استعراض مواهبه الجسدية.

تصورت بدءاً أن تعامد أشعة الضوء الخافت على البقعة التي اختارها بفطنة داخل المكان عكس تلك الظلال الأنثوية على وجه الفتى مكحول العينين عنابي الشفتين الرقيقتين، تحت شلال من شعره الناعم اللامع المتهدل على جبينه وكتفيه الناحلين، يتخلله فتح مقنن للشفتين لثوان تكشف عن صف أسنانه السفلى الذي يبدو لبنياً، مع أداء يدعوك للاقتراب أكثر.. ولأنه لا يمكنني الاقتراب كنت أكتفي بأن أحدق أكثر وأكثر؛ لأتأكد إن كان هذا كله بفعل سقوط أشعة الإضاءة الملونة التي كان الفتى يجلس تحتها، أم أن الفتى تدخل لإضفاء هذا السحر على وجهه الطفولي الأمرد.

تعمّدت الذهاب إلى البار.. أقصد البوفيه.. حيث يجلس الفتى؛ لطلب الماء بنفسي؛ حتى أختلس النظر إلى وجهه فأتيقّن إن كان ما أراه حقيقة أم انعكاسات للإضاءة في المكان. بينما كنت أطلب الماء من النادل، استرقت الطرف إلى وجه الفتى، شيء لا يصدق.. الفتى يستخدم (الميك أب). الشفتان العنابيتان تقطران حمرة مصنعة.. رائحة البرفان الـ(sexy) التي بدا أنه رشها باحترافية على جسده لم تدع مجالاً لأي شك، يا إلهي.. أين أكون أنا؟ لم أعتد رؤية مسخ كهذا منذ عودتي من لندن.. هناك فقط في أزقة (سوهو) بين شارع أكسفورد وجادة شافتبسبوي، وتشارينج كروس

Twitter: @abdullah_1395

وشارع ريجينت، حيث مأوى تجار المخدرات والجنس معاً، خليط من أعراق العالم من فرنسيين وإيطاليين وألمان، وروس، وبولنديين، ويهود، ويونانيين وسويسريين، فروا من جحيم الاضطهاد في بلادهم إلى عالم سوهو الذي صنعوه بأيديهم.. عالم يبدو ضد الفضيلة، وإن كان واقعه أنه يحافظ عليها، فلم يفكر أحد من هؤلاء أن يقدم المخدر أو متعة الجسد إلى غير مرتادي المكان من راغبي خدمات سوهو. وعلى خطورة سوهو إلا أنها تظل مكاناً آمناً؟ فمرتادها من المثليين سيجد ضالته، أو بالأحرى ضاله إن كان رجلاً، بينما إن كانت مرتادة المكان إحدى السحاقيات، فستجد ضالتها، حيث معاقل اللوطيين والسحاقيات الذين ينتظرون قاصديهم من أهالي لندن وزوارها. أيضاً هواة المشاهدة فقط، بوسعهم تمضية أوقات مسلية بين مسارح وسينمات وبارات سوهو والاستمتاع بعروض التعري التي يقدمها المثليون، إن كان ممن يستمتعون بمثل تلك العروض، وحتى إن كان من محبي الاستطلاع فإن عالم سوهو يظل مسرحاً لتلك الدهشة التي تسيطر على أعين وعقول هؤلاء، الذين كنت أحدهم، رغم أنني لم أكن أبداً من هواة مشاهدة عروض التعري، وأبغض خلق الله إلى نفسي أولئك الذين يريقون دماء رجولتهم بسكين العهر الذي أتى على رقاب أبطال مسرحية سوهو العبثية المجنونة التي بقيت دائماً مسرحاً يقدم عروضه لجميع المشاهدين، دون أن يفرض على أحدهم أياً من الأدوار التي تؤدى على خشبته.

ربما هذا كان أكثر ما يعجبني في سوهو، ويدفعني إلى التسلل إليها في بعض الإجازات التي أكون فيها وحيداً، ذلك الأمان الذي كنت أشعر به هناك رغم وجودي بين الخطر، وقبلها كنت في شوارع جدة القديمة معرضاً للخطر في كل لحظة، وفي كل مكان، رغم ادعاءات الجميع أننا نعيش في أمان.

(سوهو) رغم دعارتها ومثليتها وتجارتها الممنوعة، استطاعت أن تفرض احترامها على الجميع.. بمهرجاناتها السنوية التي يمنع خلالها دخول السيارات إلى شوارع (سوهو) حتى لا تضايق جموع العراة التي

Twitter: @abdullah_1395

تقطع الشوارع هازجة راقصة تمارس حريتها أمام كاميرات المصورين التي أصبحت (سوهو) إحدى أهم مواد الميديا التي تقدمها، بل معقل الميديا في لندن التي أطلقت العنان لـ(سوهو) التي ضربت المثال في الحرية والأمان للجميع، فلا تقدم موادها المحظورة إلا لطالبيها، على حين يبقى الآخرون فقط مشاهدين مثلي. يتخذون من (سوهو) مادة للتأمل، وربما التسلي والضحك.

ولم أكن أستغرب وجه فتى الكوفي شوب الآسيوي الـ(sexy) فهيئته تلك اعتدت رؤيتها كثيراً في سوهو، بيد أن الذي صدمني أن يمارس الفتى عروضه في أماكن عامة غير مخصصة لمثل هذا النوع من النشاط. بدأ يتردد داخلي تساؤل كبير عن إذا ما كان الفتى أخطأ المكان الذي يمارس فيه عروضه التي يقدمها بخبرة واحتراف، أم أن بلادنا كلها أصبحت مسرحاً من المحتمل أن نطالع فيه مثل تلك المشاهد في أي وقت وفي أي بقعة منه، ودون أن يصيبنا ذلك بالدهشة.

أحزنني طويلاً أن الاحتمال الثاني ربما كان هو الأقرب إلى الحقيقة، فقط عودة قصيرة بالذاكرة إلى الوراء كانت كفيلة بترجيح هذا الاحتمال، فحكايات اللوطيين الذين كنا نكتشف وجودهم بيننا من رفقاء الطفولة والشباب كانت تجعلني أفكر في كل من ألتقيه للمرة الأولى أنه ربما يكون مثلياً إلى أن يثبت العكس.. كنت أضطر كثيراً إلى مراقبة الحركات اللاإرادية التي تصدر عن البعض بعين الخبرة التي تجعلني أستطيع أن أميز بين الرجل الحقيقي والرجل الذي تسكنه امرأة، بيد أن ثمة صنفاً آخر من هؤلاء لم يكن يكلفك عناء الحيرة والتفكير فيشرع في الإعلان عن هويته أمامك بمص شفتيه، أو لثم إحداهما للأخرى بالتناوب، أو بتعمد الاستدارة أمامك والتهادي في مشيته ليبدي لك ليونة وخضوع ومطاوعة ردفيه الأنثويين، لربما تكون لك حاجة فيهما، فيوفر عليك عناء بحثك عن رفيق.

الحدود عندنا لم تكن فاصلة أبداً بين هؤلاء وغيرهم من الأفراد

Twitter: @abdullah_1395

العاديين الذين لا يزالون يحتفظون بمعالم رجولتهم كاملة.. المثليون في بلادنا كانوا دائماً كالسرطان يسعى لنهب المزيد من مساحات الجسد.. حتى يستطيع هؤلاء توسيع رقعة المجتمع الذي يمارسون فيه نشاطهم أو يجدون فيه متعتهم إن كانوا من الهواة فقط، وأيضاً ليحصلوا على اعتراف – ولو ضمنياً – من المجتمع بوجودهم ؟؟.

وجود الفتى الـ(sexy) في مقهانا ذاك المساء، أثبت لي بعد سنوات الغربة التي يبدو أن أشياء كثيرة تغيرت خلالها، أن هؤلاء تحقق لهم كل ما أرادوا، وأصبح بإمكان أحدهم أن يدور بمؤخرته على طاولات المقاهي، بحثاً عن الزبائن.

كان الفتى الـ(sexy) يبدو لي أول ما شاهدته فتى غير مهذب، يجهل قانون (سوهو) الذي يقضي بعدم ممارسة هذا النوع من العروض خارج حدود (سوهو) حسب الأعراف هناك، لكنه تبين لي بعد تأمل أن الفتى لم يتجاوز حدوده، وأن كثيراً من أماكننا العامة إن لم تكن كلها، تصلح لأن تكون قطعة من (سوهو)، حتى دورات المياه العامة التي تمتلئ أبوابها وجدرانها بأرقام هواتف اللوطيين، وربما يتواعدون لممارسة اللواط داخلها، لم تكن استثناء من ذلك.. توقعت كثيراً في الماضي أننا ربما نصل إلى هذا المصير، كنت أتمنى دائماً ألا يحدث ذلك، لكنه حدث.. حدث بمنتهى الفظاعة والفوضى والجنون.

عدت إلى الطاولة قبل أن ينتبه جيراني الأغبياء؛ فتثير فضولهم تحركاتي المريبة، والويل لي من ألسنتهم إن اكتشفوا أمري.

الفتى كان يتمتع بحسّ احترافي عال.. بدا واضحاً أنه كان يراقبني منذ البداية.. وربما كان يسترق الطرف إلى دهشتي وأنا أراقب تفاصيل جسده غير الاعتيادية بالنسبة إلى رجل.. كان يمسح براحتيه البيضاوين البضتين رقيقتي الأصابع مستطيلتيها على فخذيه تارة وردفيه تارة وثدييه تارة، في دلال لا يليق برجل.. لا أكاد أصدق.. فتاي الخاص إذن فتى عام.

يا الله.. مثل هذا الفتى في الماضي كان يتكتم أمره حتى عن نفسه..

Twitter: @abdullah_1395

يتحدث إلى الجميع مقتنعاً تماماً بأنه رجل مكتمل الرجولة، حتى أنهم أحياناً يصدقونه، وقد ينسون للحظات أن الفتى الذي أتى بصحبته سيخلو إليه آخر الليل.. نعم كان هؤلاء يعيشون بيننا، لكن ما كان يمارس فيهم كان سراً يحدث في الظلام، ثم يحدث أن يَفشو هذا السر، بل إن أحد هؤلاء ربما استمر في تلك العلاقة لحرصه على أن يظل هذا سراً يتكتم عليه الطرف الآخر الذي مارسه معه فلا يفضحه، وهكذا تجره المرة الأولى إلى المرات التي بعدها، ويفعل ما يفعل، أو بالأحرى يُفعَل به ما يُفعَل، على أمل أن يتخلص يوماً ما من هذا الكابوس، لكن أن يستمرئ الفتى الأمر إلى أن يصنع من نفسه عاهرة تصطاد الشبان من المقاهي، فهذا ما لا أصدق أنه يحدث..

يوسف يهمس في أذني مجدداً:

- صدق يا خوي صدق.. حنا صايرين أوروبيين.. ولسه باقي أشياء كثير ما شفتها.

صباح أيضاً كان على الخط:

- أشياء كثيرة اتغيرت يا سامي.. ما عادوا يستحون، حتى أجسامهم صاروا يحقنوها بالهرمونات..

- هرمونات.؟

- يوسف: إي هرمونات.. ما شفت صدر الزين اللي كنت تطالع فيه من شوي.. تظن هذا صدر رجّال.. ولا أردافه.. ما في علاقة بينها وبين جسمه..

- صباح: الهرمون يا سامي.. الهرمون.

- يوسف: بالمناسبة يا سامي إذا تبغى تكبر أي شي عندك.. آمر.. أنا في الخدمة.

هذه المرة لم يفلت الوقح.. نال جزاءه صفعة على قفاه، ورفسة في قدمه معاً.

Twitter: @abdullah_1395

في طريق عودتي إلى البيت حيث تنتظرني أمي التي يبدو أنني انشغلت عنها طويلاً، هاتفتني تطمئن عليّ:

- هلا يا أمي..
- سامي.. اتأخرت يا قلبي.. نسيت أمك؟
- أبد يا أمي والله.. جايك الحين.
- لا تتعشى مع الشباب.. عشاك جاهز.
- تسلم يدك يا أمي.. أنا في الطريق.

كان وجهه الأسمر الذي لا تخلو قسماته من طيبة ومسالمة يهيمن على مشاهد الذاكرة التي بقيت عالقة في رأسي من أمسيتي مع الأصدقاء..

كان لحوحاً في مقابلتي، حتى أني اضطررت إلى إعطائه موعداً على المقهى.. قطع عليّ حديثي إلى صباح ويوسف عن (الفتى العام) ورفاقه من الفتيان (الفتيات) الذين يجوبون مقاهي شارع التحلية.

- أستاذ سامي؟
- هلا..
- أنا حسام..

Twitter: @abdullah_1395

- حياك الله أخ حسام.. اتفضل اجلس.
- لا، لا.. شكراً..

أستاذ سامي.. أنا قررت أكتب لك هذه الرسالة وأوفر عليك جلسة استماع يمكن تمتد لأيام.. خصوصاً إني عارف إنك دائماً مشغول.. لكن بالله لا تنساني.

دسّ في يدي مظروفاً أبيض، ومضى بعدما استأذن في أدب جمّ منحنياً، لم يدر إليّ ظهره إلى أن اقترب من باب المقهى، ثم ابتلعه الظلام في الخارج والزحام.

أخذني الفضول إلى قراءة رسالة الزائر الغريب الذي ألقى إليّ أوراقه وانصرف وأوصاني بألا أنساه.. لكنني لم أكن في حاجة إلى وصية الشاب؛ فمثل هذا الوجه لا يُنسى أبداً، بشرته السمراء الداكنة التي بدت كأنها قُدَّت من طينتها للتو، ناضرة على رغم قتامتها، مستبشرة على رغم إظلامها، طيبة أليفة محبة على رغم قوة الجسد الذي يحملها وفتوته وعلو قامته.. عندما يتحدث إليك بلطفه الذي أسرني وانحناءاته المهذبة الخلوقة، تشعر أن الله سخر لك مارداً كنت قبل ثانيتين من رؤيته تظن أنه ربما أتى ليفتك بك، لكن صوته الصديق وقسمات وجهه المهادنة وهو يلقي عليك السلام يملآنك أماناً ورغبةً في مصافحته..

- تراني أزعجتك.. سامحني.. صار لي شهر وأنا أنتظرك..
- معقول..؟!
- أنا داري إنه مو معقول.. كمان الحياة ما عاد فيها شي معقول يا أستاذ سامي.

لكنه لم يصافحني، وظل مدة الجُمل القصيرة المقتضبة التي دارت بيننا يحافظ على مسافة مئة سنتيمتر أو يزيد بيننا؛ فلم يمد يده إليّ إلا قبيل

Twitter: @abdullah_1395

انصرافي، مادّاً إياها برسالته المغلقة.

مارست فضولي على رسالة الشاب الطويلة التي ربما أحسّ يوسف وصباح برغبتي في قراءتها فانضما إلى بقية الفريق، بينما جلست أنا أطالع الأسطر الأولى منها.

.. (أستاذ سامي.. أعلم أن أول ما تبادر إلى ذهنك أنني ألححت في طلب مقابلتك، ربما لطلب مساعدة ما.. مالاً، وظيفةً، أو وساطةً لدى أحد ما أو جهة ما.. لكنني يا سيدي ليس لديّ شيء من ذلك كله.. ليس لديّ ما أطلبه، ومن فرط ما يئست من أن يقدم العالم إليّ شيئاً قررت ألا أنتظر شيئاً من أحد.. كل ما أحتاج إليه الآن يا سيدي أن يسمعني أحد.. أن يقرأني أحد.. أن يشعر بي أحد.. صنيعٌ أشهد لك به أمام الله يوم القيامة.. بضع دقائق من وقتك الذي أعلم أنه ضيق؛ فلعله يتسع لي إن علمت أن عمر إنسان كاملاً ضاع هباءً منثوراً، وعزاؤه أن تحُل قضيته التافهة الهامشية التي لم يعبأ ولم يكترث بها أحد في نصف ساعة من عمرك المهم الذي يدور حوله الكثيرون كما تدور الفراشات حول الضوء..

امنح أوراقي المظلمة يا سيدي مساحة من ضوئك تتصدق بها على بؤسي ويأسي من كل شيء، إلا وجه مَن ليس كمثله شيء.. وهو اللطيف الخبير..

.. ولدت في الثالث والعشرين من أكتوبر أي بين برجي (الميزان) و(العقرب).. بين الهواء والماء.. هواء الميزان نادراً ما يتحول إلى رياح، أما ماء العقرب فيتحول إلى موج قويّ يروي عطش رمال الشاطئ، متحدياً نور الشمس مهما كان قادراً على إبقاء الرمل دافئاً، وبعيداً عن أيّ بلل.

المولود بين هذين البرجين يحب الاستقرار لكن بعد بلوغ الهدف الذي ينشده.. خير مدافع عن القضايا المحقة، وإن كان ينقصه

Twitter: @abdullah_1395

القدرة على التعبير أو الخطابة، وإذا أخفق في الوصول إلى هدفه صار مدمراً، حتى مع من أحبهم.. المال لا يعني له شيئاً، بل يتوق إلى الإسراف طمعاً في كسب ودّ الآخرين، وإرضاءً لرغبته أيضاً..

هذا المولود المتطرف في حبه وفي عدائه قد يكون الأحلى في الحب، والأكثر ميلاً إلى الجمال؛ لأنه متأثر بكوكب فينوس.

هذا المولود يحب الحب وإن فتش عنه بعينين مفتوحتين وبواقعية ليست مرغوبة كثيراً في عالم الحب؛ فهو مؤمن بأن الحب الواعي له الاستمرارية، وفيه راحة البال والابتسامة المشرقة في ليل العالم..

هذا المولود يا سيدي هو أنا.. بيد أني لم أكن شيئاً من ذلك كله، لم أكن حتى إنساناً له حقوق البشر؛ فالعالم ضن عليَّ بكل شيء، حتى بحق الشكوى أحياناً، فلا تضنّ أنت أيضاً عليَّ بهذا الحق..

وصدقني يا سيدي.. مجرد قراءتك بقية رسالتي تلك بالنسبة إليّ هي عين الإنصاف الذي وجدته نادراً، وربما كان خرافة نحشو بها أوراقنا وحكاياتنا دون أن يكون لها وجود حقيقي في الحياة.. فكن أنت المنصف الوحيد في هذا العالم.. ولك الأجر.. ولي الصبر..).

- سامي.. عشاك راح يبرد.. اترك الرسالة لبعدين يا قلبي.

كنت جائعاً، لكن رغبتي في استكمال قراءة رسالة الشاب غريب الأطوار، غريب الحديث، غلبت رغبتي في تناول الطعام.

- ايش عندك يا سامي؟
- أبداً يا أمي.. بس معايا رسالة مهمة.
- أهم من العشا مع أمك؟!
- أبدا يا حبيبتي.. ما في أهم منك.

Twitter: @abdullah_1395

انحنيت وقبلت يدها التي كانت على مقربة مني على الطاولة، تقرب إليّ كل ما تقع عليه عيناي من طعامها وتشعر برغبتي في مدّ يدي إليه.. تربت على كتفي أو تمسح رأسي.. تراقبني وأنا أتناول بشهية مفتوحة أكلاتي المفضلة التي صنعتها لي بيديها.. ربما لم تعد شهيتي مفتوحة مثل سابق أيامي حين كنت طفلاً، لكن طعام أمي يظل شيئا مختلفاً، حباً خالصاً أتذوقه وأتلذذ بطعمه في فمي، ويسري صحةً وعافيةً في بدني... يدها التي اعتادت مداعبة شعري لم تكف عن المسح على رأسي أبداً، حتى وأنا جالس في عملي في الرياض تفصلني عنها مئات الكيلومترات، حتى قبل ذلك، وأنا في لندن، كلما ضاقت عليّ الأرض بما رحبت، كنت أغمض عيني ليدي أمي تمسحان فوق رأسي، تتغلغل أصابعهما في شعري.. تذكراني بأنهما ترتفعان طويلاً في الثلث الأخير من الليل إلى ربها أن يحفظني.. وأن ربها لم يرد يديها صفراً أبداً، فأهدأ وأطمئن.

.. (أول طعم للخوف ذقته على يدي أمي، أقرب الناس إليّ.. كان السبب إبرة للخياطة تسببت في ضياعها، فلما سألتني حلفت بالله كاذباً أني لم أرها، أمي التي دفعت ثمن كذب أحدهم عليها وغدره بها باهظاً، كان أكره ما تكرهه أن يكون ابنها كاذباً مثل أبيه.. كان جزائي الكي بالمكواة على ظهر اليدين.. عقوبة غير عادلة أبداً لطفل لا يدرك خطورة الكذب.. عقوبة ربما كانت تتمنى أن تلحقها بأبي، لكنه نجا وتعرضت أنا لها.. ولو كنت دققت النظر يا سيدي وأنا أسلمك رسالتي، للاحظت أثر الحرق القديم الذي لم يمحه الزمن..

ربما لم يعد ذلك الحرق يؤلمني، لكن ثمة حرق آخر تتجدد آلامه المبرحة كل ثانية.. كلما تنفست وأحسست بدبيب روحي في جسدي، وأني إنسان لا هوية له ولا وجود.. نطفة قذف بها ذلك الرجل الذي يفترض أنه أبي في رحم أمي ثم انصرف دون أن يعير بكائي انتباهاً، فلم يؤذّن في أذني مثل بقية الآباء، ولم تأخذه شفقة أو رأفة باستغاثتي

Twitter: @abdullah_1395

به وفزعي في أول يوم لي في العالم، فيحنو على نطفته التي تبكي. من قبلُ استجاب لاستغاثات أمي بعدما هتك ستر الله عليها.. التقيا في عرس أخيه.. كانت أمي هي (الطقاقة)[1] التي اتفق معها أخوه لإحياء العرس، وكان عليه أن يحضرها وفرقتها بسيارته.. في الطريق إلى قصرهم هيجت مشاعره نبرات صوت الطقاقة الشابة التي سافتها أقدارها للجلوس إلى جواره في مقعد سيارته الأمامي.. بدأ بينهما حوار لم يتوقف إلا بصرخاتي خارجاً من رحمها.. دموع أمي التي كانت حينها لا يزال لديها من الجمال والمال ما يدعوه إلى الرفق بحالها جعلته يوافق على العقد عليها ولكن سراً، لكن الرجل أفاق حين رأى منظر سحنتي السوداء، وفكر طويلاً، وأدرك أنه مقدم على كارثة اجتماعية قبلية، حتما ستكون سبباً للقطيعة بينه وبين عائلته العريقة.. فرّ الرجل هارباً بعدما اقتحم خزانة أمي، وسلب منها عقد زواجهما السريّ، وكل ما يصلح لأن يكون إثباتاً لعلاقة كانت تربطه بتلك المرأة في يوم من الأيام.

اللص الذي سرق شرف أمي، وسرق عمري كله، أفلت بسرقته، ومحا كل أثر لجريمته، إلا شهادة ميلادي، نسي أن يسرقها ضمن ما سرق.. شاء الله أن يكون أباً لي، على رغم تنكره وهربه ونذالته.. بالنسبة إلى أمي كانت الورقة دليلها الوحيد الذي انتظرت أن تقدمه إليّ عندما أكبر وأسألها من أين أتت بي؟.. والآن أصبحت تلك الورقة بالنسبة إليّ تساوي وجودي كله، ودليلي الوحيد، وسط مجتمع يحتقر لوني، أني لست نبتاً شيطانياً بينهم.. أني واحد منهم، وإن لم يرقهم لوني الأسود.. أني مواطن بلا هوية ولا تغير هذه الحقيقة لون وجه أمي.. كانت الورقة إجابة مفيدة أقدمها لمعلميّ في المدرسة الذين كانوا دائمي التساؤل: لماذا لا يحضر أبوك إلى المدرسة ليطمئن عليك؟.. لماذا دائماً وحدها تحضر أمك؟

---

(1) الطقاقة: جمعها (طقاقات) وهن نساء يعملن في إحياء الحفلات.

Twitter: @abdullah_1395

عندما كنت صغيراً كان همي الأول أن أقدم الإجابات للناس عن أبي الغائب الذي لم يره أحد.. أبي الذي لم يكن بالنسبة إليّ أكثر من اسم مخطوط في شهادة ميلادي، تقول أمي إنه مسافر فأقول للناس: مسافر.. تقول: مشغول.. فأقول: مشغول.. تقول: غداً يأتي.. فأقول: غداً يأتي.. لكنني بعدما كبرت أصبحت أنا في حاجة أكثر من الناس إلى إجابة عن أسئلتي الكثيرة عن هذا الذي أنجبني.. عندما ضيقت الخناق على أمي اكتشفتُ أن أبي ليس مسافراً، وليس مشغولاً، وأنه.. لن يأتي.. علمت أن أبي هارب، وأنه لا يريد أمي، ولا حتى يريدني...).

مواسم السعادة في حياة أمي أصبحت تلك الإجازات التي أمضيها معها في مدينتي القديمة.. طوال الوقت أشعر بعينيها تحاصراني.. تراقباني.. تلاحقاني.. تبتسمان لي.. فلطالما تألمتا من أجلي، ولطالما تحملت أمي ظلم العالم وقهره حتى تنجو بي إلى بر تطمئن فيه على سلامتي، حتى وإن كان الثمن عمراً بذلته سهلاً رخيصاً في سبيل سعادتي.

أمي لم تغضب عليّ يوماً، لم تأخذني بجرم العالم في حقها.. كان الألم يعتصرها اعتصاراً وهي تبتسم في وجهي، خشية أن تمتد يد الألم الذي يسكنها وتطولني بسوء.

- ليش بتبكي يا أمي؟
- أبداً يا قلب أمك.. بس عيني توجعني.
- لا يا أمي.. إنتي تبكي.
- صدقني يا ولدي عيني بتوجعني.. بعدين شوفتك عندي تسوى الدنيا. كنت أعلم أنها لا تقول الحقيقة.. كنت أعلم أنها.. تبكي.

... (كثيراً كنت أقدر ظروف أمي التي جعلتها تقسو عليّ كثيراً،

Twitter: @abdullah_1395

وكثيراً أيضاً كنت ألومها في نفسي، لكن يا سيدي، أبداً لم أكرهها، فلم أكن لأزيدها ظلماً على ظلمها، وكفاها ما تحملت من أجلي.. نعم منذ صغري كان حصارها لي أمام الناس بغيضاً، فعندما نكون عند أحد أقربائنا لا تتوقف عن تعنيفي: اقعد.. لا تسوي.. لا تعمل.. لا تتحرك.. دائماً كانت متحرجة أن يتلفظ عليّ أو عليها أحد بسوء.. دائماً كانت تحرص على العيش على الحافة؛ حتى لا يشعر أحد بأنها هي وطفلها يمثلان لأحد مشكلة، فينفخوا في الرماد الذي في صدرها، والذي كانت دائماً تحرص على أن يظل رماداً.

انتقلنا من الرياض إلى مكة وعمري 6 سنوات.. كان أول منزل مكثنا فيه منزل خالتي، ثم انتقلنا من منزل إلى منزل، ومن أسرة إلى أسرة، وفي كل منزل يوجد أطفال في مثل سني، والأطفال لا يتوقفون عن اللعب، ولا يتوقفون عن الشجار، ثم الصلح، ثم الشجار، بيد أني دائماً أكون المخطئ، دائماً أكون البادئ، دائماً أكون المنبوذ الملفوظ، يعاقبني الآخرون ثم تعاقبني أمي، وقبلها أكون طبعاً مضروباً من الإخوة الذين يلتفون حول الطفل الغريب الذي اقتحم عليهم حياتهم وشاركهم ألعابهم، ونزهاتهم، وطعامهم.

أكثر من سبعة بيوت لعائلات أهل أمي لفظتنا.. وبمبلغ المال الذي خرجت به أمي أخيراً من إرث لها تمكنا من الرحيل إلى جدة، حيث استأجرت أمي بيتاً وأثثته، وبقي معها مبلغ من المال فكرت في استثماره لتعيش من ريعه.

برز لأمي رجال كثيرون من طراز أبي.. أقرباء وغرباء.. بعد أكثر من دورة للمال في مشاريع لم نكن نعلم عنها شيئاً، سوى أنهم يديرونها بأمانة وإخلاص، تآكل مال أمي، وفقدنا سندنا الوحيد في الحياة، فلم يبق لنا منه إلا حفنة من المشاحنات والمهاترات والقضايا، والمطالبات، التي كنا ننفق عليها أكثر مما نأخذ منها.. استوعبنا الدرس أخيرا وفهمنا أننا نُهبنا، وأنه لا أمل لنا في رجوع

Twitter: @abdullah_1395

أي من المال.

أما بالنسبة إليّ فقد استكملت مسلسل صراعاتي في المدرسة المتوسطة التي انتقلت إليها.. دائماً على رأس قائمة المتهمين بأي سرقة تقع في المدرسة أو العمارة التي أسكنها، وربما كنت وحدي في القائمة.. دائماً أنا المذنب في كل مشاحناتي مع أقراني، حتى أن نزاعات تحدث بعيداً عني لا علاقة لي بها من قريب أو بعيد أجدني مطلوباً للمساءلة عنها.. دائماً حظّي الضعّف أو الضعفان أو أكثر من العذاب إثر أي مشادة مع أقراني، بينما يعاقب الآخر عقاباً رمزياً، أو ترى الإدارة ألا تعاقبه أصلاً.. دائماً أنا الحلقة الضعيفة.. دائماً أنا الطرف المستحق للعقاب.. أنا اللص.. أنا المعتدي.. أنا الكاذب.. أنا المعاقب؛ فالإدارة علمت أنه ليس لي أب يأتي للمطالبة بحقوقي والدفاع عني مثلما يأتي آباء الآخرين فيأخذون حقوق أبنائهم وحقوقي أيضاً فيضمونها إلى حقوق أبنائهم.. سبب آخر، أن لوني الأسود لم يكن يروق لأحدهم.. لوني دائماً هو المتهم.. هو المخطئ.. هو السارق.. لوني دائماً كان الدليل الذي يستخدمه الجميع ليثبتوا عليّ الجرائم التي ارتكبتها والتي لم أرتكبها، والتي ربما يرتكبها أي أحد فيما بعد.. عذاب اعتادني، وربما اعتدته أيضاً، على رغم آلامه التي لا يشعر بها سوى صبي في تلك السن يبعد عنه الناس أبناءهم خشية أن يلوث وجوههم البيضاء الرائقة شيء من سواد وجهه.. صبي لا وجود له ولا حقوق.. لا يكتفي الآخرون بفقره وظلمه بل يزيدونه ظلماً على ظلم، وفقراً على فقر.

لا أنسى لوحتي التي رسمتها وفازت بالمركز الأول على مستوى مدارس المملكة.. كان موضوع المسابقة انتماء الجميع للسعودية.. رسمت علَمَ المملكة يرفرف فوق صاريه، والصاري كان عشرات السواعد المجدولة القوية، على اختلاف درجات ألوانها.. بدءاً بالأبيض، وانتهاء بالليلي القاتم الذي يحمله وجهي.. اللجنة اختارت

Twitter: @abdullah_1395

لوحتي ومنحتها المركز الأول.. كان اليوم الوحيد الذي أُستدعَى فيه إلى طابور الصباح في المدرسة لشيء آخر سوى الضرب والركل واللطم على الوجه أمام الجميع.. هنأني مدير المدرسة بفوزي بالمركز الأول.. وتشريفي المدرسة وسط مدارس المملكة.. ثم تناول الرجل علبة أقلام ملونة من الحجم الصغير كان يحملها خلفه أحد المعلمين منتظراً لحظة التكريم وكأنه يحمل تمثال الأوسكار.. قدمها إليّ مدير المدرسة وأمر الطلاب بالتصفيق.. وبالطبع لولا أنهم أمروا لما صفقوا، بل لعلهم جميعاً تمنوا حينها أن لو يكون هذا التصفيق على وجهي الأسود بدلاً من أكفهم، كم كنت مسكيناً فقيراً معدماً حين فرحت بعلبة الألوان الرخيصة الرديئة التي قدمها لي المدير بمنّة ما بعدها منّة، واعتبرتها رمزاً كبيراً لوجودي الأول الذي صفق له الجميع.. قبلت اللاشيء وفرحت به، بينما علمنا فيما بعد أن الوزارة كانت رصدت جائزة مالية قيّمة لصاحب اللوحة الفائزة بالمركز الأول.. جائزة كان يمكن أن تفيد طفلاً في مثل ظروفي وأمه كثيراً، لكن مدير المدرسة كان له رأي آخر، وربما كان الرجل محقاً، فاللجنة رأت اللوحة فقط، وربما لو رأوا لون وجهي لراجعوا أنفسهم طويلاً قبل منح جائزتهم لـ "عَبْد" صغير أسود.

على كل حال أنا كنت قانعاً بعلبة الألوان الرديئة، وسعيداً أكثر بأن صفق لي الجميع للمرة الأولى.. والأخيرة أيضاً..).

Twitter: @abdullah_1395

في طريق عودتي إلى الرياض، كانت ذاكرتي لا تزال مشحونة بمشاهدات إجازتي في جدة.. أحاديث الليل الممتدة مع أمي التي كانت تحاول اقتناص الزمن للتطلع في وجه صغيرها الذي كبر سريعاً، لكنه في نظرها لا يزال صبياً يأتيها من الخارج متسخ الثياب بعد نهار من اللعب.. تقبله وتأخذه من يديه ليستحم، وحالما ينتهي من الاستحمام تقدم له يداها المشفقتان عليه من هواء المكيف البارد ثياباً أخرى تنتظره بها واقفة على باب الحمام..

- راح أموت من الجوع يا أمي.
- أكلك جاهز من ساعة يا قلب أمك.. تعال.
- تسلم يدك يا أمي.. لكن كلي إنتي وأنا آكل بيدي.. ولا أنا مو رجال؟
- رجال وسيد الرجال.. بس ريحني وكل من يدي يا قلب أمك.

مشاهد كثيرة علقت بذاكرتي من إجازة العيد.. مائدتنا في باحة المسجد النبوي في المدينة المنورة التي أزورها مع والدتي كل رمضان في العشر الأواخر.. مجلس الأصدقاء.. أحاديثهم، وضحكهم، ولهوهم، واستفزازهم الدائم لي، حتى نتضارب كما كنا نفعل بالأمس في مراهقتنا.. الفتيان الـ(sexy) الذين خرجوا إلى النور أخيراً، وأصبح بإمكانهم الإعلان عن

Twitter: @abdullah_1395

خدمة استقبال الراغبين في اللواط، دون حرج منهم، أو استياء من أحد.

أمثال هؤلاء الفتيان في الماضي كنا نميزهم بمرافقتهم الدائمة للشبان أصحاب الأصول الإفريقية الذين كانوا أكثر الشبان براعة وأشهرهم في ترويض هؤلاء الصبيان وتأنيثهم، ثم الاحتفاظ بهم إلى جوارهم كالمحظيات يصطحبونهم معهم في كل مكان.. لم يكن أحد يصرح بشيء، لكن الكل كان يفهم طبيعة العلاقة.. أمثال هؤلاء إما أن يسعى أحدهم إذا شب عن الطوق للخلاص من تلك العلاقة التي تبخسه رجولته، أو يكون الأوان قد فات، وأصبح الفتى يجد لذته الجنسية عن طريق عملية تدليك البروستات التي يجريها له الآخرون.. المسألة تتوقف على طريقة التعاطي مع الشعور باللذة بيولوجياً لا أكثر..

هكذا يصبح بعض الفتيان إناثاً مكتملي الأنوثة، خاصة عندما تنشأ علاقة حب حقيقية بينه وبين الطرف الآخر.. يتخللها كثير من عبارات المغازلة، ومشاعر الاشتياق، والرغبة العارمة من الذكر في تذوق اللذة مع أنثاه المتحولة.

يوسف نفسه كاد يسقط فريسة لأحد هؤلاء المتحولين الذين فقدوا نعومة وجوههم المراهقة ودقة أنوفهم ونداوة شفاههم الطفولية المحمرة، فرغب عنهم معشوقوهم من اللوطيين.. فوجدوا أنفسهم مجرد (خكاري)، وربما ينفق أحدهم في سبيل إقامة علاقة مع أحدهم ثروة كاملة إن طاب له الأمر، وأينعت العلاقة.. يوسف كان أحد هؤلاء حين وقعت عليه عين الثري الشهير الذي يعرفه أهل جدة كما يعرفون اسم مدينتهم.. حدث أن شاهد الرجل يوسف في حفل أقامه لموظفيه.. في ذلك التاريخ كان يوسف أحد المعدمين الذين يصعب أن يفوّتوا مثل تلك الوليمة.. ذهب صديقي يومها لالتهام أكبر كمية يمكنه التهامها من الطعام؛ على أمل أن جسده سيكون لديه أكبر مخزون من البروتين يجتره في قادم الأيام العجاف. كان يوسف الذي ذهب برفقة قريبه الذي يعمل في إحدى شركات الرجل الثري على موعد مع القدر في ذلك المساء، حينما وقعت عليه عين الثري مع قريبه..

Twitter: @abdullah_1395

تودد إليهما الرجل على نحو خاص.. طلب منهما زيارته لاحقاً لتناول العشاء معه.. ذهبا إليه حسب الموعد المتفق عليه بينهم..

دار حديث خاص بينه وبين يوسف.. صارت علاقتهما خاصة.. بعد أكثر من لقاء بينهما فاتحه الثري في الأمر، وأنه يريد إقامة علاقة معه.. لم تكن مفاجأة ليوسف الذي كانت تساوره الريبة في الرجل غريب الأطوار، الذي ترك أعماله وشركاته وتجارته التي تخطت المليار، وتفرغ لشاب صغير جائع تقريباً..

يوسف رفض وانصرف.. لكن الرجل أرسل في طلبه ثانية.. أخذه معه في سيارته.. مرّ به أمام سلسلة عمارات له، ثم بدأ يسرد أمامه.. هذه إيرادها كذا.. وهذه إيرادها كذا... وهذه إيرادها كذا... ثم عرض عليه أن يكتب له إحدى تلك العمارات بيعاً وشراءً باسمه، على أن يقيم علاقة معه مرة واحدة.. بل عرض عليه أن يكون في ظرف عام أحد أغنياء جدة.. لكن نفس يوسف أبت عليه ذلك.. نفس صديقي أبت عليه أن يبيعها هكذا.. وأبت عليه أيضاً أن يرتكب الفحشاء واللواط معاً..

- تصدق يا سامي.. يقول لي قريبي إللي عرفتي على (الشايب العايب) إني ضيعت فرصة عمري.
- وانت إش رأيك؟.
- اللّه يلعنها فرصة.. أموت من الجوع ولا أهز عرش الرحمن.

الآن يوسف يمتلك شركة ناجحة، وفي طريقه لإنشاء أخرى بالحلال، من كده وتعبه واجتهاده، والآن كلما أذكّره بالثري الذي كان بالنسبة إليه في ذلك التاريخ فرصة لامَه قريبه على تفويتها، يقول لي: (من ترك شيئا للّه أبدله اللّه خيراً منه).. أليس هذا كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟.

مشاهد جدة الأخيرة ظلت ترافقني طوال طريق عودتي إلى عملي في

Twitter: @abdullah_1395

الرياض، خاصة أولئك الفتيان الخكاري، الذين ربما يخبئون خلف وجوههم الأنثوية مستقبلاً ممسوخاً لا سحنة له.. وجود هؤلاء يعني أن خللاً خطيراً يحدث، أن كارثة قد تحل، أن شيئاً ما يجب أن يفعله أحد ما من أجل هدف ما، لا أن يترك الأمر هكذا.

بالأمس كنا جميعاً ندين الشبان ذوي البشرة السمراء أصحاب الأصول الإفريقية، كنا نعلق على مشجبهم نقيصة مهينة قد يُبتَلى بها أي منا؛ عندما يكتشف أن أخاه أو ابنه أو ربما أباه (لوطي) يستمرئ أن يطأه الآخرون.. لكن الآن هؤلاء الفتيان هنا في شارع التحلية بمفردهم.. يقدمون عروض (الاستربتيز) على المقاهي والأرصفة وصالات البلياردو، ويحيون حفلات (الشكشكة)[1] يرقصون فيها كالفتيات، وليس ذلك فحسب بل يلفتون أنظار الشبان إلى أثدائهم وأردافهم المعدلة بحقن الهرمون حتى تصبح أكثر جاذبية وأجمل أداءً.. بينما هؤلاء السود الذين يدينهم الجميع الآن يجلسون على نواصي حواري جدة الفقيرة، يمضون نهارهم في لعب الكرة، ثم يلتفون حول (الفرفيرة)[2] مع دخول المساء.. يمارسون ما يمارسه جميع الفتيان في أعمارهم، ربما يمارسونه أكثر من غيرهم؛ لأنهم أكثر منهم وجوداً في الشارع ولجوءاً إليه؛ لأنهم الأكثرون فقراً وعدماً وضياعاً.. هؤلاء لم يكونوا هناك في شارع التحلية في تلك الليلة، وليس في مقدورهم ارتياد مقاهيه المكلفة، لكن عشرات الصبيان والفتيان الذين يمارسون عروض الـ Erotic الذين كانوا هناك، والذين اصطحبوهم من الشبان أيضاً، كلهم كانوا من أصحاب بشرتنا الوطنية الخالصة.. صاحب البشرة السمراء الوحيد - على ما أتذكر - الذي ارتاد مقهانا المعبأ برائحة اللوطيين من زبائن وعارضين كان المسكين الذي ترك لي رسالته وانصرف على عجل، عندما أحس كم هو نشاز وسط المكان، وبين مرتاديه..

---

(1) الشكشكة: أداء الشبان رقصات خاصة بالفتيات.

(2) الفرفيرة: لعبة كرة قدم يتحكم بها لاعبان في فريقين من التماثيل البلاستيكية على طاولة خشبية معروفة عالمياً باسم (Baby Foot).

Twitter: @abdullah_1395

الفتى الأسمر الذي زارنا اليوم كان جريمة تمشي على الأرض، شاهدة على فعلة أحد رجالات قومي، الذين لا يجيدون سوى التنكر لأصحاب البشرة السمراء والتنصل منهم والتعالي عليهم، حتى لو كانوا أبناءهم الذين من أصلابهم.

من يقول لرجال وطني إن (الخكاري) الصبيان والفتيان والشبان والشيبان غالبيتهم يحملون لون بشرتنا الوطنية الرائقة، بينما السود المنبوذون المستقبحون لم يكونوا إلا رجالاً، فلماذا كل هذه العظمة؟!. ولماذا كل هذا الشموخ؟! ولماذا التعالي عليهم وقد أثبتت التجربة أنهم الأفضلون؟!.

.. (شهادة ميلادي كانت كافية للتنقل بين المدارس الابتدائية والمتوسطة، بمعاونة بعض الواسطات التي كانت أمي تسعى إليها.. ووضعي القلق المتوتر دائماً صرت أعتاده، فعلى الإنسان أن يعتاد أقداره؛ إذ لا خيار آخر أمامه.. لكن واقعي كشف عن وجهه القبيح، وكشر عن أنيابه عندما بلغت السادسة عشرة وفكرت في استخراج بطاقة أحوال مثل أصحابي..

حتى تلك اللحظة كنت أتصور أنني مثل أقراني، بوسعي أن أذهب إلى مصلحة الأحوال المدنية وأقدم لهم شهادة ميلادي، وفي اليوم التالي أحصل على بطاقتي، حينها يمكنني استصدار رخصة قيادة؛ لتجنب ملاحقة أفراد الدوريات الأمنية على الطرقات، ويمكنني أيضاً مواجهة مدير المدرسة الذي وعدني بحرماني من امتحان قبول الثانوية إذا لم أقدم بطاقة أحوالي مثل الآخرين، وأنه لن يقبل في ذلك شفاعة ولا وساطة، وكأنها كانت فرصته الذهبية لإيذائي.. لماذا؟.. لا أعرف!!.. كل ما كنت أجده من مبررات للرجل أنه يكرهني كرهاً فطرياً!! مثله مثل كثيرين ممن اعتادوا الحكم على الناس من خلال لون بشرتهم، تماماً مثلما اعتدت أنا أيضاً نظرة الاستعلاء والإقصاء والنفور والتوجّس في أعين هؤلاء..

Twitter: @abdullah_1395

- وين أبوك؟ (سألني موظف الأحوال).
- ما أدري عنه.
- ما في أحد من قرايبه.. أعمام.. أولاد أعمام؟!
- ما عندي قرايب غير خالة وأولادها.

حولني إلى المدير، والمدير حولني إلى مكتب الجنسية، ومكتب الجنسية حولني إلى المحكمة لاستصدار صك تغيب الأب، والمحكمة حولتني إلى الإمارة؛ إذ لا بد أن يكون الطلب عن طريقها..

مراجعات لا نهاية لها، وأحدهم مشغول، أو غائب، أو متعب، أو له طلبات جديدة.. خلق يشهدون بأنهم أقربائي، وخلق يشهدون بأن أبي متغيب، وخلق يشهدون بأن أمي هي أمي، وخلق يشهدون... إلخ، لم يبق سوى أن يطلبوا مني أن آتيهم بخلق يشهدون بأنني إنسان ولست نوعاً آخر من مخلوقات الله التي لا يدرون عنها..

بين المراجعة والمراجعة أسبوع، وأسبوعان، وشهر وشهران، وربما فصل حتى توقفت عن عد السنوات تلو السنوات التي اقتلعتها من عمري رياح المراجعات، وعواصف الجلسات، وأصبحت حياتي أكواماً من الأوراق والملفات والمعاملات.

ولأن أمي لم تعد تملك من المال ما نتعيش به، ناهيك يا سيدي، عن نزف الريالات التي كنت أتكبدها جيئة وذهاباً بين المحكمة والأحوال والإمارة، ولأن الطقاقة العجوز لم يعد في إمكانها الكسب مثلما كان في ماضي الأيام الرغيدة، ولأن إدارة المدرسة كانت تطاردني بطلب بطاقتي أكثر مما تطاردني الدوريات الأمنية في الطريق بين جدة ومكة، أو بين جدة والرياض التي تم تحويل معاملتي إليها أخيراً، وبعد أكثر من توقيف، ومساءلة، وتوضيح، وشرح، وتوسل، وتوسط، وجدتني أبتعد كثيراً عن فصول الدراسة في المتوسطة، وأتفرغ لتوفير المال لروحات الأسبوع وغدواته التي لا تنتهي..

ابتعدت كثيراً عن سماع أصوات زملاء حجرات الدراسة، ومعلمي

Twitter: @abdullah_1395

الفصول، حتى صوت مدير مدرستي البشع الذي كان ينتظر بلهفة العاشق نبأ فشلي في استصدار بطاقة أحوال حتى يعلنها في وجهي بكل ما أوتي من شماتة أنه لا أمل في دخولي اختبار قبول الثانوية العامة..

على كل حال فأنا يا سيدي لم أفقد مستقبلي الدراسي الذي توقف عند صفوف المرحلة المتوسطة فقط، فلقد فقدت منذ دخول (متاهة الفأر) التي أعيش فيها مظهري الذي أصبح رثاً، ورغبتي في الطعام التي لفظت أنفاسها الأخيرة وسط دخان محارق التبغ التي تشتعل في رئتيّ ليل نهار.. فقدت وجودي المؤجل المرهون بين أدراج الموظفين والقضاة.. وجودي يا سيدي لا يعني للعالم أكثر من ملف ضاع مرة دون أن ينتبه أحد، وأمضيت عاماً إضافياً ألملم أوراقه مرة أخرى.. الملف الذي يحوي شهادة ميلادي هو الدليل الوحيد على أن هذا الأسود الذي اعتاد القضاة وموظفو الأحوال والإمارة طلة وجهه البهية حتى سئموا الحياة، هو ابن السيد ضاري، الرجل المتغيب أو الهارب، لا يهم، المهم، ولو من باب إنقاذ الموقف، أن يتيقن هؤلاء أنني نطفة رجل سعودي غرسها في رحم امرأة خدعها حديثه ثم فر هارباً..

كان ضرورياً أن يعلموا أنني ابن واحد منهم، وأنني لست متخلفاً إفريقياً دخل البلاد متسللاً، حتى يعطوني تصريحاً أتمكن به من عبور نقاط التفتيش على الطرق بين جدة ومكة والرياض لاهثاً وراء معاملتي الزئبقية، التي ما أكاد أقبض عليها في موضع، إلا وأجدها قد سبقتني إلى الذي يليه، أو تخلفت عني في موضع سابق. كان الأمل داخلي يموت ويحيا في الأسبوع وربما في اليوم مرة ومرتين..

- راجعنا بكرة.
- راجعنا بعد أسبوع.
- راجعنا بعد 14 يوم.

Twitter: @abdullah_1395

- راجعنا بعد شهر.
- جيب لنا فلان يشهد.
- جيب لنا فلان يضمن.
- وثق لنا الورقة الفلانية.
- استخرج لنا الصك الفلاني.

أمل الدراسة أصبح سراباً لطالب كان يفترض أن يكون متفوقاً وموهوباً، وأصبحت آمالي كلها معلقة بعمل يعينني على سدّ فم المراجعات، هذا الوحش الجائع الذي يلتهم رواتبي الضعيفة التي كنت أحصل عليها من عملي لدى بعض محال بيع الكمبيوتر الذي في سبيل تعلُّمِه كنت أتسول المعلومة من زملائي أبناء الأثرياء الذين كانوا يحبونني ولا يبخلون عليّ بها، أو أضحي بثمن كتاب يعلمني تحميل البرامج وصيانة الأجهزة، أو أتهور وأشتري بعض البرامج التي كنت أطبقها على جهازي الخاص الذي اشترته لي أمي بشِق النفس من آخر ما تبقى لنا من أموالنا المنهوبة.

قطعت شوطاً كبيراً في تعلم صيانة الأجهزة وتحميل البرامج.. كانت المعلومة ضالتي أنى وجدتها أرحل وراءها، فلما ذاع صيتي بين أصحابي بدأ أصحاب المحال يعرضون عليّ العمل معهم.. كنت أحرص في كل عمل أذهب إليه على ألا يتطرق أحد إلى الحديث عن بطاقة أحوالي.. أكثر من فرصة مميزة لتولي إدارة شركات لبيع الكمبيوتر برواتب مغرية ضاعت، والسبب دائماً أنني شاب غير مسموح بتداول اسمه رسمياً، إلى حين العثور على المدعو ضاري، ومواجهته بادعاءاتي أنا وأمي الطلقاقة السوداء.

لكنني كنت دائماً أحمد الله.. القليل الذي كنت أحصل عليه من عملي في محال بيع الكمبيوتر كان يغطي بالكاد نفقات سعيي وراء معاملتي التي جرتني خلفها كالثور المغمى اثني عشر عاماً بين مكة وجدة والرياض، والبقية لسد الرمق ولشراء دواء أمي المريضة..

Twitter: @abdullah_1395

لكن المعضلة التي استعصى عليّ حلها حتى الآن، هي إيجار السكن الذي تراكم علينا بما يتجاوز الستين ألف ريال، حتى بدأت أفقد كل سبيل لتأجيل قرار الطرد الذي وصل الآن إلى طرف لسان مالك العقار الذي نقطنه، فإن فعلها أصبح أنا وأمي في الشارع مشردَين، فلن أتمكن من تأجير سكن آخر من دون تقديم بطاقة أحوالي التي تنتظر العثور على الرجل الهارب؛ فهو الوحيد الذي يمكنه الآن أن يقول للجميع أنني سعودي، وأنني أستحق بطاقة أحوال، وأنني أستحق أنا وأمي بيتاً يؤوينا، وأننا أصحاب حق ضائع مثله مثل كل الحقوق الضائعة لأولئك الذين وقف لون بشرتهم السوداء دون حصولهم على حقهم في الإنسانية، والوجود..).

في طريق عودتي إلى الرياض، كان وجه حسام الفتى الأسمر المسكين يطالعني عند كل نقطة تفتيش أمر بها.. أتذكر رسالته..

.. (صارت عندي خبرة بنقاط التفتيش.. أعرف أماكنها ومواعيدها وآلية تحركاتها أكثر مما يدري رجال الشرطة أنفسهم.. هل تصدق يا أستاذي أنه لو علم عني الإرهابيون لما تركوني إلا وأنا منضم لجماعتهم..).

كلما فتح لي أحد أفراد إحدى نقاط التفتيش الطريق بأريحية وسعادة بعدما يطلع على خانة (الوظيفة) في رخصة قيادتي ونوعية سيارتي، أتذكر ذلك المسكين الذي لم يحلم يوماً بأن يبتسم له رجل أمن، فوجه الشرطي يتلون حسب الموقف، وحسب الشخص الذي يقف أمامه، وثمّ وجوه يخشى رجال الأمن التطلع فيها أصلاً تماماً مثلما يخشى المسكين حسام التطلع في وجوه رجال الأمن..

Twitter: @abdullah_1395

.. (أصعب شي يا أستاذ سامي.. إنك تعيش في وطنك مثل لص؛ كل العيون تلاحقك.. كل العيون تتوقع منك السوء.. كل العيون تقول هذا مو وطنك.. وأنت ما تعرف لك وطن غيره).

لماذا يختلف الوطن هكذا علينا؟.. لماذا يتعدد حولنا؟.. لماذا لا يكون له وجه واحد.. يتطلع فيه الجميع فينتابهم شعور واحد، لا مشاعر شتى، تتراوح بين الخوف منه، أو احتقاره، أو.. ربما.. الاستعلاء عليه؟!!

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

أبْـلَـه

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

انقضت خلواتي إلى أمي الغالية، انقضت إجازة العيد سريعاً.. انقضت مجالس الأصدقاء بضحكها وضجيجها وصفعاتها وركلاتها المتحفظة بعيداً عن أعين المتلصصين على طاولتنا، عدت إلى الرياض مجدداً. في صباح اليوم التالي كنت في طريقي إلى العمل، ورسالة حسام التي كلما خلوت إلى نفسي قليلاً أتناولها وأقلب صفحاتها، كلما نظرت إليها أطالع وجهه الخجول على مظروف رسالته، يخاطبني مطأطأ الرأس، غاضّ الطرف: (بالله، لا تنساني يا أستاذ سامي..) أبتسم وأقول في نفسي: وهل مثلك يُنسَى؟

- أبله..

قالها أحدهم، وصرير إطارات سيارته التي توقفت خلف سيارتي فجأة، يسحق أسفلت الشارع.. في النهار أستطيع أن أرى بجلاء في مرآة سيارتي وجوههم المقطبة، وأقرأ شفاههم التي لا يخامرني شك في أنها تكيل لي وابلاً من الشتائم التي لا تستثني أحداً من أفراد أسرتي، خاصة الأم والأخوات.. دائماً حظ نسائنا من الشتائم أوفر من حظ نساء العالم.. في حين أن حظ رجالنا من الهزائم أوفر من حظوظ رجال العالم.. إحصائية خاصة بي ينكرها عليّ الجميع هنا في العاصمة، رغم يقينهم أنها حقيقة صارخة، مثلها مثل آلاف الحقائق التي اعتدنا إنكارها بكل تخلف..

مشكلتي وسط هؤلاء أنني لا أفكر أن أتخطى إشارة المرور الحمراء، بينما

Twitter: @abdullah_1395

ينطلقون هم عن يميني وعن يساري، رغم سطوع اللون الأحمر في أعينهم، وبدء تحرك سيارات الاتجاه المعاكس.. دائماً على عجلة من أمرهم.. دائماً غير قادرين على الانتظار.. دائماً يحرص كل منهم على عبور الشارع قبل غيره، حتى وإن كان عبوره على جثث وحطام سيارات الآخرين.. المهم أن يعبروا ورغم أنف كل شيء..

بالنسبة إليّ، فإن مكابح سيارتي تعمل بحركة أوتوماتيكية من قدمي المتوجسة الحذرة حدَّ الذعر، بمجرد ما يلوح لها الضوء الأصفر.. ثَمّ رهابٌ من إشارات الضوء الأحمر، يسيطر على حركة أعصابي.. يجعلني دائماً أخشاها.. دائماً أتوقعها.. أنتظرها قبل أن تضيء.. رهاب لا يقل سطوة عن ذلك الذي يعتري الفتى الأسمر كلما ألفى نفسه في مواجهة مع رجال الشرطة عند أحد الأكمنة. رهاب ربما أسبابه بالنسبة إليه واضحة لا تحتاج إلى شرح، رهاب شاب يدرك أن نقطة التفتيش تلك ربما تكون بئراً أبدية تبتلع وجوده فلا يعود إلى الحياة من ظلمات السجون ثانية؛ لأنه ليس سعودياً، وليس أجنبياً، بل هو بالنسبة إلى نقاط التفتيش، ليس شيئاً، أما بالنسبة إليّ فدوافع الرهاب الذي ينتابني أمام إشارات المرور تظل مجهولة، أو ربما أعرفها، لكنني لا أحب تذكرها.

لم يحدث لي أبداً أن اجتزت إشارة حمراء.. لم يساورني شك أبداً أني إن فعلت ذلك فإن جثتي ستصبح نِهباً لإطارات سيارات العاصمة، التي لا تعرف حرمة للّحم الآدمي، خاصة إذا كان صاحب هذا اللحم لا يرتدي شماغه وعقاله؛ إذ لا يكفي الجلباب وحده في العاصمة لكبح شهوة العدوان لدى الآخرين، فلربما يظن بك هؤلاء أنك مجرد وافد يحتمي في جلبابهم.. عليّ ألا أنسى الشماغ على الأقل إذن، إن أنا اتخذت قرار القفز خلف مقود سيارتي، واجتياز طرق العاصمة المفخخة بالموت، وإشاراتها الصاخبة بسباب الأمهات.

دائماً كنت أدفع ثمن الأخطاء في حياتي باهظاً؛ لذا دائماً أحرص على ألا أرتكبها.. ربما منصبي الآن يؤهلني بقوة لأقترف هذا النوع من

Twitter: @abdullah_1395

الأخطاء دون أن ألقي بالاً لأحد، ودون أن أكترث بسيارة دورية المرور التي تتربص فقط بمن يكون في مقدورها إيقافهم من المخالفين، في حين تعمى أعين الدوريات مع سبق الإصرار والترصد، وربما مع قلة الحيلة، عن سيارات بعينها، مهما ارتكبت من فظائع، بل إن الرادار نفسه يتعطل أعطالاً كاريكاتورية عن التقاط أرقام أو صور تلك السيارات التي تمر كوميض البرق كأنها ترتاد الفضاء، وليس شوارع عاصمة مزدحمة.. بإمكاني أن تكون سيارتي إحدى تلك السيارات الاستثناء، بيد أن رُهاب الحذر الذي فُطمت عليه في طفولتي كان كفيلاً بأن يصنع مني رجلاً غير قادر على التخلي عن هواجسه.. رجل يرتفع في وجهه عقال أبيه مهدداً بجَلده إذا همّ باجتياز الإشارة الحمراء.. يحملق أخي الكبير في وجهي متوعداً إياي بالتنكيل كلما فكرت في اجتياز السرعة المقررة.. ينهرني أبي إذا أهملت شد الحزام عليّ قبل أن تتحرك السيارة.. كفّ أخي الكبير تنهال على وجهي إذا مر يوم على موعد فحص السيارة الدوري.. كثيراً ما أتصورهما جالسين مكان شرطيي المرور في سيارة الدورية، يرقبان عجلات سيارتي التي أحرص على كبحها قبل أن تجتاز مواضع مرور المشاة.

خوف الطفولة تخطى مواقف بعينها كنت أتعرض على أثرها للعقوبة، إلى أن أصبح رهاباً.. حذَراً عاماً من أي شيء، ومن كل شيء.. يصبغ حياة رجل كاملة.. رجل تعلم منذ حَبْوه ألا يخطئ.. ألا يقصر.. ألا يهمل.. ألا يتنفس أحياناً إذا كان هناك ما يستدعي ألا يتنفس لبضع لحظات.. تماماً مثلما كان يحدث عندما أقف بين يدي والدي ناكس الرأس وهو يعنفني.. كنت أخشى أن أتنفس بحرية، فيراقب حركة صعود قفصي الصدري، ويظن أنني أشعر بالارتياح ولا أبالي بتعنيفه، ثم تكون العاقبة الوعرة التي تنتظر ذلك النوع من العصافير، الذي يقف على فكاك التماسيح لالتقاط بقايا لحوم فرائسها التي تنحشر بين أسنانها.. على هذا النوع من العصافير أن يكون حذراً تمام الحذر.. وألا يصدر أي حركة زائدة عن حركته المعتادة، وأن يتذكر دائماً أنه واقف بين فكي التمساح؛ حتى لا يتسبب في أن يطبق أحد التماسيح فكه

Twitter: @abdullah_1395

عليه، وتكون النهاية التي لا يتمناها عصفور بحجمي. آنذاك. لنفسه.

هكذا نمت داخلي رهبة الخطأ.. وهكذا نجحت في دراستي.. وتفوقت على أقراني، ليس لأني كنت أفضلهم؛ بل لأني كنت أخوفهم.. أخوفهم من الفشل.. أخوفهم من كل شيء، وأي شيء.. الخوف.. ذلك الرهاب الذي صنع مني ذلك البطل الورقي، تماماً مثلما صنع الكبت من هؤلاء المرضى الذين يقفون حولي في الإشارة ثيراناً هائجة، تضرب أقدامها بالأرض، تتحين اللحظة التي يفتح لها فيها باب الحلبة، لتنطلق على غير هدى.

- أبله

كاد أحدهم يفتح زجاج نافذة سيارته ويصرخ بها في قفاي حتى أسمعها، يحدث ذلك على وجه الخصوص في المرات التي أرتكب فيها الحماقة الكبرى، وأخرج من منزلي مرتدياً البنطال والقميص، في محاولة للتغيير، لا أنكر أنها محاولة غبية؛ فهكذا أقدم للجميع سبباً وجيهاً لسبِّي وسب أمي وأخواتي وبلدي الذي قدمت منه إليهم بوجهي العكر؛ إذ يبدو لهم جميعاً أنه إحدى الدول المجاورة، خاصة عندما يلمحون بشرة يدي القمحية اللون، التي تطل عليهم من نافذة سيارتي.. فالبشرة البيضاء تمنع أحدهم أن يهم بسبابك، ولا سيما إذا اكتملت آية الحسن فيك، وكانت لك فروة رأس شقراء، أو حتى بنية، على أن تكون ناعمة الشعر، حينها يظن الجميع أنك أوروبي، وفي تلك الحالة أنت في مأمن من السباب ومن كل شيء؛ أولا لأنهم سيدركون حينها أنك لن تفهم أي شيء مما يتلفظون به عليك، فلا فائدة من السباب إذن، وثانيهما وهو الأهم، أنهم دائماً يعتقدون أن أصحاب هذا اللون من البشرة البيضاء المائلة إلى الاحمرار وفراء الرؤوس الشقراء، سلالات لا تخطئ، حتى وإن ارتكبت أفظع المخالفات بالنسبة إليهم، هؤلاء هم النظام نفسه، وعلى الآخرين أن يتبعوهم مغمضي الأعين.

من سوء طالعي أنني لا أتمتع بتلك الألوان الطاووسية للبشرة وفروة

Twitter: @abdullah_1395

الرأس، التي ستجنبك أو تجنب أهلك على الأقل سباب أعراب العاصمة.. عليّ إذن أن أدفع فاتورة حماقتي وتركي جلبابي فوق شماعته، ودخولي في ذلك البنطال الذي لن يحفظ لوجهي ماءً، وسط غضب قائدي مركبات العاصمة، الذين تعتري بعضهم نوبات الصراخ والسباب في الإشارات، ولا سيما أولئك الذين لا يرون الإشارات أصلاً، ولا يعترفون بوجودها، وربما يعتبرون أنها وضعت فقط للضعفاء الجبناء أمثالي، الذين لا يتجاسرون على تجاوزها.. الألوان في وطني لها مفعول السحر، لون بشرتك تتوقف عليه نظرة الآخرين إليك، وتتحدد بناء عليه لغة الخطاب المتوقعة من الآخر.. فرق كبير بين (لبيه) التي يبادر بها الآخر إليك مبتسماً، إن كنت ممن يحملون لون البشرة الوطنية، أو ما فوقها من ألوان البشرة الشمالية الأوروبية، أو يقال لك: (وش عندك) التي أمضى حسام عمراً يسمعها من الآخرين دون أن يعيره أحد اهتماماً أو التفاتة، كأنه نقطة عدمية لا تلفت نظر أحد، فراغ يتعاطى معه الآخرون بتجاهل مميت.

أتذكر أن أحدهم ذات مرة، بينما أنا مارّ بسيارتي، قطع عليّ الطريق من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين فجأة دون سابق إنذار.. نجح الرجل في أن يجعلني أخرج عن طوري.. ضغطت على بوق سيارتي بقوة حتى ألفت انتباهه إلى حماقته التي ارتكبها.. هدأ الرجل من سرعته قليلاً.. ألفيت زجاج نافذته هابطاً، وما أن انفرج الزجاج قليلاً حتى أطلّ عليّ إصبع يده (الوسطى) من النافذة.. كان هذا رد فعل الرجل على غضبي، بدلاً من كلمة – أو تلويحة – الاعتذار التي كنت أنتظرها.. كان هذا كافياً لكيلا أعترض مرة أخرى على أحدهم مهما فعل، حتى وإن عبر من فوق سيارتي، وليس فقط من أمامها..

قطع الإشارة أو الطريق بالنسبة إلى رجل من هذا الطراز، يعد بمثابة حبة المهدئ التي يتعاطاها في الطريق، عندما تعتريه نوبة تضخم الذات، التي تبقى سبباً متحفّظاً عليه من الجميع، يقف وراء حوادث السير اليومية، بل التي تقع بمعدل حادثة في الدقيقة في بلادنا.. أما الشبان فعندما

Twitter: @abdullah_1395

تعتريهم نوبة التمرد على الكبت الذي يعانونه، يعبرون الإشارات الحمراء في زوبعة من الضحك والضجيج والرقص على الموسيقى الخليجية الصاخبة، التي بدأت تنافسها في تابلوهات سيارات الشبان الإيقاعات الغربية، التي ظننت أن وداعي إياها في لندن كان أبدياً، وأنني لن أسمعها مرة أخرى في الطريق، إلا إذا قدر لي العودة إلى لندن من جديد.. وإن كان شعوري بتلك الإيقاعات هناك مختلفاً كثيراً.. هناك كانت الموسيقى تغزو جسدي وأنا متمدد فوق سريري للاسترخاء، أو أتقافز على صوت آلاتها وسط الأصدقاء في الـ(Week end) هناك في ضواحي لندن، حيث يبدأ كل شيء في وقته المخصص له.. هناك حيث يقف الجميع احتراماً للنظام والوقت وآدمية الآخرين.. هناك حيث يذهب المرضى نفسياً من تلقاء أنفسهم إلى العيادات النفسية لتلقي العلاج، لا أن يخرجوا للشوارع كالجمال السائبة يعذبون الأحياء بوجودهم.. هناك حيث تقاس ثقافة الفرد بقدرته على تفهم حقوق الآخرين، وتقاس قوته بالقدرة على الحفاظ عليها والدفاع عنها، لا أن تكون ثقافة الفرد تعني قدرته على خداع الآخرين، وجرهم خلفه كالقطيع والتغرير بعقولهم، أو أن يكون معيار القوة اختراق النظام، والتهام حقوق الآخرين.

ثَمّ خلل نفسي عام يحكم السواد الأعظم من ممارسات الناس هنا.. أتصور أن كثيراً من أولئك المريبين الذين يخترقون إشارات الضوء الحمراء، أو يقطعون عليك الطريق فجأة، أو يقفون في غير أماكن الوقوف، أو يتبادلون الأحاديث عبر نوافذ سياراتهم التي تتوقف عن الحركة تماماً حتى ينتهي موضوع حديثهم، تاركين قائدي المركبات في الشارع خلفهم يسبون أمهات أمهاتهم، ويعضون بأسنانهم على أبواق سياراتهم..

لم يساورني شك أبداً أن تلك الحالات – على كثرتها – في حاجة إلى جلسات علاج نفسي مرحلي طويل، يتمددون أثناءها أمام المعالج ويحكون عن طفولتهم.. هؤلاء إما أن يكونوا إفرازات الطفرة المرضية، أجيال المدللين الذين حرص آباؤهم على أن يجنبوهم عناء ماضيهم، فخرج هؤلاء

Twitter: @abdullah_1395

إلى العالم مخلوقات لا ترى سوى أنوفها الضخمة، التي وصاهم آباؤهم بأن يحرصوا على إبقائها مرتفعة فوق الآخرين.. بعض هؤلاء المخلوقات لا تعرف من مفردات الحياة سوى حَفْن الطِّيب على أبدانهم وثيابهم وإتيان الآسيويات اللائي يؤدين في قصورهم أدوار الخادمات وبائعات الهوى والأمهات، ثم الخروج إلى الشوارع بسياراتهم الجديدة دائماً، الفارهة، يحرثونها طولاً وعرضاً، حتى الهزيع الأخير من الليل، بعدما يكونون قد أمضوا مساءً طويلاً، بين إلقاء أرقام جوالاتهم إلى الفتيات والنساء وربما دسها بأيديهن، أو إرسال مقاطع البلوتوث الجنسية إلى الجوالات المتاحة دائماً لاستقبال الخدمة في كل مكان، وإما أن يكون هؤلاء الفتيان ضحايا عنف مفرط، جعل من أحدهم قنبلة موقوتة تسير بين الناس، وقد تنفجر في أي لحظة، خاصة أولئك الذين اعتادوا استخدام أصابعهم (الوسطى) للتعبير عن عدوانهم تجاه الآخرين.. من المؤكد أن هؤلاء ضحايا التحرشات الجنسية التي عانوها في الطفولة من الأقارب وغيرهم، أو ربما كان أحدهم من أولئك الذين يتحرشون بالصغار.. ثمة لغة عامة للعنف يفهمها الجميع هنا.. ثقافة الأصابع (الوسطى) التي تطل عليك من نوافذ سيارات العاصمة، يعبر بها أولئك النفر من الموتورين عن نوع ردود الأفعال التي قد تتعرض لها إذا اعترضت على سلوك أحدهم الشاذ، أو ربما كانت عَرْضاً من أحد المثليين يقدمه إليك، إذا كنت لوطياً، أن تتبعه إلى حيث يقتادك، ليقدم لك الاعتذار اللائق عن الخطأ، وربما يصبح العدو صديقاً، وتبدآن معاً علاقة ناجحة، مثل كثير من تلك العلاقات التي تربط الشبان هنا منذ كانوا معاً في صفوف الدراسة.

أيا كانت دلالة الإشارة، فهي تبقى في النهاية إحدى مفردات لغة يفهمها الجميع هنا، ويعبرون بها عن سخطهم عليك، أو رضائهم عنك، وعليك أن تقبل بها وتردّ بمثلها، أو تبقى خارج كل شيء، ولا تعترض.

الموسيقى هنا أشبه بعملية إحماء يقوم بها أحد الشبان قبل ارتكاب جريمة ما، غالباً ما تكون جنسية، بينما هناك في المدن الباردة، تتعاطى الموسيقى

Twitter: @abdullah_1395

كما تتعاطى حبات الكرز من فوق قطعة تورتة شهية بديعة التصميم، تتشبع أنفك برائحتها الزكية، لا تخرج من نوافذ السيارات صاخبة كالعوادم تصم آذان الآخرين، يمارس عليها حفنة من الشبان المكبوتين رقصهم أو تشنجهم، هذا أول الليل..أما في آخر الليل فتزداد نوبات صراخهم وهم يمرقون بالسيارات كالطلقات عبر إشارة الضوء الأحمر، وبصحبتهم أحد الآسيويين الذين يلتقطونهم آخر الليل من شوارع العاصمة ببضعة ريالات، ليفرغوا فيهم فورتهم الذكورية.

Twitter: @abdullah_1395

مشهد متكرر في شوارع العاصمة، يبدأ بالتقاط أحد الآسيويين المنتظرين على مقاهي تحلية الرياض، تتحرك عينا أحدهم في كل الاتجاهات بحثا عن إشارة تلتقطها أو إيماءة أو حتى نظرة فضول لا يدعها الشاب الآسيوي تمر هكذا دون أن يستثمرها، على أمل أن يفتح له باب إحدى السيارات، فيدخلها بمؤخرته مثلما تفعل نجمات أفلام البورنو، مبتسماً لهم ابتسامة تختصر على الجميع الوقت، حتى يشرعوا مباشرة في أداء مهمتهم التي لا تعني لأحدهم سوى دفق تلك الحمم التي أشعلها في حوضه وجه الآسيوي الأمرد النسوي الملامح، بينما يتجاوز الأمر ذلك كثيراً بالنسبة إلى هؤلاء الشبان الآسيويين الذين يعتقد قطاع عريض منهم ـ حسب ما رواه لي أحد الآسيويين ـ أن نبي آخر الزمان سيولد من معاشرة رجل لرجل، لذا يحرص بعض الآسيويون دائماً على أن يحتفظ بنطفة أحدهم في مؤخرته، لربما يكون سعيد الحظ الذي يتحرك نبيّ آخر الزمان في أحشائه.. هكذا لا يتوقف ولع بعض المخنثين الآسيويين بشبابنا فلا يكفون ليل نهار عن التفتيش في مقاهي تحلية الرياض عن أب لنبيّ آخر الزمان الذي ينتظره بعض هؤلاء الآسيويين حسب معتقدات البعض منهم.

إذن الشاب الآسيوي الذي التقيته في شارع التحلية في جدة، والشبان الذين ينتظرون على مقاهي شارع تحلية الرياض، كلهم ينتظرون شيئاً واحداً.. كلهم يجمعهم هدف.. كلهم لديهم فكرة ما، مهما اعتراها

Twitter: @abdullah_1395

الخطأ.. بيد أنها تبقى فكرة.. هدفاً.. غاية.. أي شيء محدد.. بينما شبابنا الهائجون المارقون لا يخضعون لشيء سوى الهياج تحت تأثير عقدة تجعل من أحدهم فريسة في الوقت الذي يظن فيه أنه قناص ماهر بإمكانه التقاط أحدهم من الطريق والفرار به.. بينما فريسة الآسيوي لا تكلفه أكثر من الجلوس على كرسي المقهى، وتركيب إحدى قدميه على الأخرى، حتى تظهر له إحدى الفرائس وتفتح له باب سيارتها، فيقوم مبتسماً يتهادى حتى تستقر مؤخرته على الكرسي، ثم تنطلق به فريسته بعيداً عن الأعين، حيث يلتهمها في هدوء، ثم يتركها متمددة على بطنها من التعب بعدما نزفت ساعات تحت تأثير المنشط الجنسي، ثم يعود إلى المقهى لتناول عشائه أو غدائه أو ارتشاف كوب من الكابوتشينو والاسترخاء على مقعد المقهى الفاخر المطل على شارع التحلية، في انتظار ظهور فريسة أخرى تفتح له باب الحلم مجدداً، لربما يرزق من إحدى فرائسه التي لا تقاوم فتنته، نبيّ آخر الزمان.

لماذا يكون للجميع أهداف يسعون إلى تحقيقها فينا دائماً في حين نجهل الهدف من وراء كل ما نجد أنفسنا مدفوعين إليه هكذا، بفعل قوى الشر التي تسكننا، كأننا بيوت مهجورة لا يطل من ظلماتها سوى وجه الفزع.. وجه المجهول الذي ننتحر في لجته ببلادة وبلاهة يندر أن يجدها المرء بين سوانا من شعوب الأرض؟!

هناك في لندن.. كانت قدماي تأخذاني على غير إرادة مني إلى حلبات الموسيقى والرقص.. الجميع يلبون نداء ما في أجسادهم في يوم الراحة الأسبوعية، بعد خمسة أيام من العمل الشاق.. كنت أجدني ألبي ذلك النداء.. أكافئ مفاصلي على توقفها عن الحركة أسبوعاً أمام شاشات الأجهزة، مستغرقاً في العمل.. هناك حيث لا تتسع حلبة الرقص سنتيمتراً عن الموضع المحدد لها، بينما تنطلق حلبات الرقص هنا في الطرقات محمولة على ظهور سيارات (الوِرّعان) الهائجين، تعتدي على إشارات

Twitter: @abdullah_1395

العاصمة بضجيجها، وتختطف الآسيويين ـ إذا لم يكن بين (الورعان) من يرغب في أداء دور الآسيوي بين أصدقائه ـ ثم يلقونه على قارعة الطريق، عائدين بسياراتهم قبيل شروق الشمس؛ ليمارسوا إغماءاتهم فوق أسرّتهم، حتى حلول ظلام الليل..

الموسيقى هناك تأخذك، والموسيقى هنا تخيفك.. الصخب هناك يحتضنك، والصخب هنا يغتصبك، وربما يقتلك.. الإشارات هناك هدنة قصيرة بين إطارات سيارتك وأسفلت الطريق، والإشارات هنا صفعات تنهال على وجهك وقفاك، وركلات تخلع مؤخرتك، تماماً مثلما يحدث لي عندما أقفز في بنطالي وقميصي وأجلس وراء عجلة قيادة سيارتي، بوجهي القمحي الذي يخلو من تقليعات الشبان، أو أصباغ وماكياج الشيبان، أو أي أمارة تجعل قائدي سيارات العاصمة يقرؤون في وجهي أنني سعودي مثلهم، ولست مجرد سائق متأنق أقود سيارة فارهة لإحدى العائلات.

على كلٍ فأنا لم أعد أتضايق من السباب، سواء التي أقرؤها على شفاههم في مرآة سيارتي، أو تلك التي أسمعها بأذني عندما يظنني أهل العاصمة وافداً أجنبياً.. حينها يأمنون جانبي، ويدركون أنه لا أهل لي أستدعيهم على أثر مشاجرتي مع أحدهم فيدفع ثمن سبابه باهظاً.. الأمر لا يعنيني أبداً.. ليمارسّ الحمقى سبابهم؛ فأنا من فرط ما سمعت من السباب في طفولتي، نتأت لدي في نسيجي المخي خلايا مناعية، تجعلني لا أتضايق مهما سمعت من السباب.. طفولتي كانت ذلك الخطر الذي لا يُخشى على المرء شيء بعده.. أتصور أنني أحد المحظوظين القليلين في هذا العالم؛ ذلك أنني لا أزال شخصاً طبيعياً.. كلما سمعت عن منتحر أحمد الله أنه ثبتني كثيراً ولم أقدم على ذلك يوماً.. كلما نشرت صورة قاتل أسجد لله شكراً أنني نجوت من اقترافي جريمة قتل أخي فارس في ذلك المساء، عندما أفرط في ضربي وإهانتي، إلى أن استللت سكيناً ضخماً من المطبخ وتوعدته بالقتل إن أفرط في ضربي ثانية أو حتى حاول الاقتراب مني.. كلما حُكي أمامي عن علاقة بين اثنين من المثليين تنفست الصعداء أني نجوت بأعجوبة من

Twitter: @abdullah_1395

بعدما غادرت مكة تاركاً خلفي ثماني سنوات من طفولتي أمضيتها في كنف البيت الحرام في دارنا القديمة التي أصبحت اليوم بقعة من بقاع الحرم بعدما ضمت إلى ساحته في التوسعة الأخيرة، كان الشارع مأواي هرباً من المعتقل الذي كنت أعيش فيه، واللوطيون في أزقتنا وشوارعنا لا يعدمون ألف طريقة للوصول إلى الصغار والمراهقين، فإن فشلوا في استدراجهم واصطيادهم بالطرق السلمية يكون خطف أحد أولئك الصبيان والاعتداء عليه ثم تصويره بكاميراتهم أقرب السبل لضمان انضمامه إليهم.. حرص أحد الصبيان على بقاء صوره أثناء ممارسة الجنس معه سراً كفيلٌ ببقائه رهن تصرف أحدهم. كلما قرأت عن ضبط مجموعة من الشبان من متعاطي الكبتاجون أو الحشيش، أرمي بظهري على مسند مقعدي ويعتريني ارتياح كبير أني أفلَتّ من ذلك كله.

.. (أعترف يا سيدي وأنا خجل منك ومن هذا التاريخ اليائس الذي مضى إلى حال سبيله، وبقي منه يأسه فقط، أنني اختل توازني وأخطأت كثيراً.. التقيت كبار السن من شباب التحلية.. وصرت أعرف الديت والهبقات والتفحيط المنظم والعشوائي، وكل ما هو متاح لي من أنواع الخراب.. بدعاء أمي فقط سلمت من اثنين: اللواط والمخدرات..).

أنا أيضا نجوت بأعجوبة من أن أكون لوطياً أو مدمن مخدرات، وأيضاً نجوت منهما بدعاء أمي وكثرة إخوتي، فمن له إخوة فهو مستبعد من الخطر لأن له ظهراً يحميه، ولكن من يكون وحيداً فهو فريسة سهلة تنتظر من يفترسها.. الفتى الأسمر يقول إنه خجل.. يبدو أن مظاهر الترف والمقهى الراقي والملابس الفاخرة غرته، حتى ظن المسكين أنني من وطن آخر، أو أنني أمضيت طفولتي في شوارع أخرى غير شوارع جدة.. عالم

Twitter: @abdullah_1395

الطفولة الملغوم الذي ذهب ضحيته صغار كثيرون، دفعوا مستقبل أيامهم ثمناً لأخطاء آخرين.

نعم كنت محظوظاً إلى درجة أني أحياناً لا أصدق نفسي، وأتصور أنني قد أكون شخصاً آخر غير الذي أعرفه.. كل شيء كان يدفعني إلى الخطأ.. كل شيء كان يحرضني على تعاطي المخدر، واقتراف اللواط والقتل معاً.. لكن دعاء أمي حال دون ذلك.. روحات وغدوات صابرة من وإلى الحرم نجّت صغيرها من ذلك المصير.

كان إفراط والدي في سبّي والتلفظ عليّ نقمة شقيت بها في طفولتي ونعمة أتمتع بها الآن في شبابي الذي أدبّ فيه دبيب رجل في كهولته المتأخرة.. دبيب لا يتوانى في اجتياز أي مساحة متاحة، واعتلاء أي منصب مهما كان صعباً وبعيداً عن شاب ثلاثيني، دبيب لا يعرف حدوداً لشيء.. نجاح بلا حدود.. لكنه بلا هدف وبلا سعادة أيضاً.. دبيب لمجرد الدبيب.. دبيب يتحول أحياناً إلى ركض وتحدّ في مواجهة الآخرين عندما تستدعي الحاجة، بيد أني لم يكن لي أبداً أولئك المشجعون الذين أجري إليهم منتشياً بانتصاري في أحد تلك السباقات، يهتفون باسمي ويوسعونني أحضاناً وصياحاً وقبلات.

مع اجتيازي خط النهاية لمضمار كل صراع من صراعاتي التي خضتها مع نفسي ومع الآخرين، أقف لاهثاً بدقات قلبي المسرعة، ووجهي المحتقن ورئتيّ المجهدتين، أنتظر صافرة السباق الذي يليه.. اعتدت السباقات.. اعتدت اجتيازها تاركاً أقراني خلفي تتمزق رئاتهم يائسين من اللحاق بي، لكنني لم أعرف أبداً طعم تلك السعادة التي يتلذذ بنكهتها المنتصرون.. لم أصح تلك الصيحة التي يطلقها أبطال العدو عند اجتيازهم خطوط النهاية، أو لاعبو الكرة بعد اختراق مقذوفات أقدامهم شباك الخصوم.. لا أتذكر من كل ما مضى سوى الركض، والركض، والركض.. لا أسمع سوى أنفاسي، ولا أرى سوى وجه أبي المقطّب وشفتيه تكيلان لي السباب، وعقاله يلهب ظهري:

Twitter: @abdullah_1395

- اركض.. اركض يا أبله..

وركضت، وركض مثلي كثيرون كانوا ضحايا بطش آبائهم.. ركضت وراء الحياة لأثبت جدارتي بها، ولأثبت لأبي وللجميع أنني لست أبله، ركضت حتى تقطرت رئتاي.. وعلى رغم ذلك كنت أفضل حالاً من آخرين، فثمة فتى ترقد قصته متعبة من عناء الركض بجواري على مقعد السيارة الأمامي من دون فائدة.

ربما ركض أمثالي ليثبتوا لأهليهم وللناس جدارتهم بحق الحياة، بينما ركض حسام وأمثاله ليثبتوا وجودهم الذي لا يعترف به أحد.. خاصة أولئك الأجلاف الذين يحكمون على الناس بثيابهم وغترهم وأشمغتهم وسياراتهم وألوانهم.

كم مرة تمنيت لو أني فتحت باب سيارتي وتوجهت إلى أحدهم، وأوسعته لكماً حتى أتركه غارقاً في دمائه.. ما أجمل أن تلقن أحدهم علقة ساخنة أمام زوجته الجالسة إلى جواره في السيارة، فلربما تدعو لك أنك حنَّيت هامته أمامها ولو مرة؛ حتى يكف عن غطرسته وجلافته التي تجرعتها المسكينة علقماً في حلقها، ولا تجد لها عليه نصيراً، فغالباً لن يكون أهلها أفضل حالاً منه، أو أهدأ طبعاً، أو أطيب نفساً، أو ألين جانباً.. لا يفرق أحدهم بين زوجته وملك يمينه.. لا أستبعد أن تكون تلك السباب التي تخترق أذني من حين إلى حين في إشارات العاصمة، أن تكون استعراضاً من أحدهم أمام الأسيرة التي تجلس إلى جواره؛ ليثبت لها أن لسانه الذي لا يكف عن أذاها لا يستثني أذاه أحداً، خاصة أولئك الجبناء أمثالي، الذين يرتعدون من رؤية الإشارات الحمراء، ويقفون أمامها كالتلامذة الصغار أمام أساتذتهم.. كم مرة تمنيت لو أسدي صنيعاً إلى إحداهن بإهانة زوجها أمامها إهانة بليغة فأسعد قلبها الحزين، خاصة أولئك اللائي ألقاهن حظهن التعس في أيدي أولئك النفر من الهمج الذين نزلوا من توهم من فوق أسنمة جمالهم، وجلسوا وراء عجلات قيادة السيارات الفارهة، في غفلة من الزمن.

Twitter: @abdullah_1395

.. (لا أعرف يا أستاذ سامي كيف يكون رجل بتلك النذالة؟.. كيف يترك رضيعاً من نطفته وامرأة سيسأله الله عنهما يوم القيامة، في مهب ريح لا ترحم ضعف المرأة ومرضها، ولا وحدة الولد الذي أصبح شاباً، وقلة حيلته.. ضاري يا أستاذ سامي طيلة سبعة وعشرين عاماً لم يراجع نفسه، لم يشعر بتأنيب ضميره الميت، لم يفكر أن هذا المولود الأسود الذي استكثر عليه أن يحمل اسم عائلته العريق هو ابنه شاء أم أبى، هو عمله الذي ستشهد عليه به يداه ولسانه وقدماه وجلده يوم القيامة.. لماذا لم يكن ضاري بنفس جرأته وشجاعته التي وطئ بها الطقاقة التي أَسَرَته بحبها، وأغدقت عليه من مالها عندما كان لديها المال؟. لماذا عند الأخذ كان شجاعاً، وعند العطاء كان بهذا الجبن؟.. لا أعرف يا سيدي.. هل يوجد أناس بحق نزعت الرحمة من قلوبهم، حتى على أبنائهم؟!.. السيد ضاري ذات مساء مضى عليه نيف وعشرون عاماً اقتاد أمي إلى فراشه، وكان يعلم أن عاقبة فعلته تلك قد تكون مخلوقاً ليس من حقه أن يقذف به إلى الوجود هكذا.. لكنه فعلها.. وقذف بي إلى الوجود، ثم عاد فمزق كل دليل على ذلك ومضى بأعصاب باردة وقلب ميت.. فماذا تسمي هذا يا سيدي؟ إنني والله أعجز عن تسميته..).

من يقول للفتى المسكين إن أمه ليست استثناء من بطش القهر الذي يمارسه رجال وطني على نسائه.. إن كثيراً من سيدات مجتمعنا السعوديات بنات البيوتات العريقة لسن في واقع أمرهن أكثر من سبايا واقع مريض، تتمنى الواحدة منهن لو تفتدي نفسها من العيش معه والظفر بحريتها ولو بمرافقة إحدى الطقاقات، تنام وتصحو وأمرها في يدها، وليس في يد متكبر جبار.. من يقول للمسكين إن المظاهر تخدع كثيراً، وإن بعضاً من نساء وطني يعملن طقاقات لأزواجهن في غرف نومهم حتى ينلن الرضا السامي، وبعضهن يصبحن لوطيات على أيدي الشواذ الذين تزوجنهم،

Twitter: @abdullah_1395

تهرب إحداهن دون أن يكون لها الخِيَرة من أمرها.. لا تملك سوى أن ترضي أباها وإخوتها.. وأن تنحني أمام بطشهم بها، وصلفهم، وجبروتهم.. يتقاسم إخوتها الرجال نصيبها من الحرية، فيعززون حرياتهم بالتحكم فيها وتقرير مصيرها، بينما لا يتاح لها من الحريات، سوى حرية المأكل والمشرب.. العيش على حافة حياتهم، في هامشها الصغير، الذي لا تتمتع فيه بشيء سوى جوالها، فتحات ضيقة تطل منها على عالم متسع فسيح، لا يُسمح بالخروج إليه إلا للرجال، بينما تعيش هي رهينة المحبسين، محبس الأهل، ثم محبس الزوج، ليس بوسعها أن تدفعه عن نفسها إن هو أراد أن ينتزع منها ما يشاء، وقتما شاء، وكيفما شاء.

كم مرة وددت لو أني أنتقم لإحداهن من أحد أولئك الأوغاد الذين يقتادون زوجاتهم وأخواتهم وبناتهم في الحياة كما يقتادون قطعان النعاج، يشير إليهن بعصاه في الاتجاه الذي يريده هو، دون أن يكون لإحداهن أدنى إرادة، ودون أن يعتد بعقلها المعطل وراء جمجمتها.

كم مرة تمنيت لو أني أسدي صنيعاً لنفسي بلطم أحدهم على وجهه، فربما أجنب العالم إضافة معقد جديد إلى سجل مرضاه الطويل، ليس له ذنب جناه سوى أنه ولد في الحياة ابناً لرجل يحمل صخرة في صدره.. نعم.. أضربه.. وأريح العالم من ولادة المعقدين البائسين الخائفين الراكضين بلا هدف، الذين يعيشون في أوطانهم، وقلوبهم معلقة بمهاجرهم، التي لم يشعروا بالأمان إلا في طرقها وأزقتها التي وإن كانت تجهلهم، إلا أنها لا تضمر سوءاً لأحدهم ولا تنوي الاعتداء عليه.. أزقة المهاجر التي امتدت فيها أول يد بعد يد أمي لتمسح على رأسي.. وكنت نسيت أن العالم فيه أيد تمسح على الرؤوس، وأعين تبتسم للآخرين.

كانت أمي تمسح على رأسي كثيراً، لكنني لا أتذكر أنها ابتسمت لي كثيراً.. لم يكن ثَمّ مجال لشيء سوى الدموع.. الدموع من أجلي عقب كل جلسة تعذيب يمارسها أبي في غرفته، أو حكم بالسجن يصدره علي شهراً أو شهرين في غرفتي، بعدما يجردها من معالمها، إلا بطانية ودلواً لقضاء

Twitter: @abdullah_1395

الحاجة، دون أن يكترث بالأضرار الصحية والنفسية التي من الممكن أن تصيبني.. الدموع من أجل الندوب والجروح التي كان يتركها أخي فارس على كل بقعة من جسدي بلا ذنب أجنيه وربما لأخطاء تافهة.. ضرب لمجرد الضرب.. اختبار لقوة عضلات ذراعيه وكتفيه وترقوته القوية.. ركل ولكمات وخنق وصفعات على الوجه لا آخر لها.. عداء لم يعرف الهدنة.. تنكيل لم يجد من يجرمه في محيط الأسرة سوى دموع أمي، وملاطفات متباعدة من (حبيب) شقيقي الأكبر، الذي كان يأتي لزيارتنا من المنطقة (الشرقية) حيث دراسته بين حين وحين.، والذي أمضيت الشطر الأول من دراستي الثانوية عنده هناك في الشرقية، فاراً من معارك منزلنا في جدة التي لم يكن يهدأ لها غبار، والتي كنت فيها دائماً الطرف الضعيف المنهزم الجريح الأسير المستلب.

أكثر من مرة كنت أسأل نفسي: لماذا يُفرِط فارس علي في عدوانه هذا الإفراط؟ لماذا يختلق الأسباب للالتحام مع أخيه الصغير الضعيف الذي يقف أمامه كأرنب بري مذعور تلتف حوله (أصَلَة) هائلة تهشم عظامه قبل أن تفتح فمها لابتلاعه؟..

- رقبتي يا فارس.. رقبتي حتنكسر.. أنا إيش سويت عشان تضربني؟
- عساها تنكسر إن شاء الله..
- خلاص يا فارس أتوب.. والله أتوب.. أبوس رجلك خلاص..

لم تكن لديه أبداً إجابة عن سؤالي: (إيش سويت عشان تضربني؟).. فيشغلني بمزيد من التعذيب عن انتظار إجابة السؤال..

كثيراً ما كنت أفكر أنه استعراض للقوة أمام الذات، مثل ذلك الذي أتعرض له الآن على أيدي قائدي سيارات العاصمة، الطواويس التي لا ترى غيرها في الطريق، ولا تسمح لغيرها بالعبور أولاً.

كلما سمعت صراخ أحدهم خلفي أتذكر وجه أبي المكفهر قبيل عاصفة

Twitter: @abdullah_1395

اللكمات والركلات والصفعات التي اعتدت اجتياحها لجسدي، لا لشيء سوى أني لا أحب إيذاء الآخرين.. لا أود أن يحكم حياتي وعلاقاتي بالآخرين منطق القوة الذي كان يحكم علاقة أبي بنا وبالعالم..

السيد جاسر كان رجلاً أعطاه الله بسطة في الجسم مع قوة غير اعتيادية، ورغبة جارفة في استخدام تلك القوة استخداماً مفرطاً لا يستثني أحداً، ولا يراعي شيئاً.. شيء من قبيل تحطيم أثاث وأجهزة عيادة طبية بعضه فوق بعض، بل كاد يكون فوق رأس (آمنة خان) الطبيبة الهندية التي كانت جريمتها الكبرى في نظر السيد جاسر أنها تجرأت وحرضت أمي على أن تتمسك بحملي وكان لي في بطنها ستة أشهر.

الأطباء جميعهم تعجبوا أن يصبح عمر جنين في بطن أمه ستة أشهر ولا تدري عنه شيئاً، ولم تشعر بوجوده.. كنت هيناً ليناً على أمي.. لكن الأطباء أجمعوا على أنني سأولد مشوهاً، أو معاقا على أقل تقدير؛ نظراً إلى أن أمي كانت تتعاطى حبوباً لمنع الحمل طوال الأشهر الستة.

بعض الأطباء أشار بإجراء عملية إجهاض رحمة بذلك المشوه المعاق الذي سيصبح وجوده في الحياة نكبة عليه وعلى الآخرين.. بينما السيد جاسر كانت له حساباته الخاصة إذ كيف يكون له ابن معاق أو مشوه.. وهو من هو جاهاً وقوة وجاذبية للنساء، ومكانة عند الرجال، ومهابة تسقط في قلب كل من يراه سواء عرفه أو لم يعرفه؟!!..

هكذا شهدت جدران بيتنا القديم في مكة أولى المعارك التي خاضها أبي ضد وجودي، قبل أن أولد.. ولادتي بالنسبة إليه كانت تلك النكبة التي قاتل من أجل ألا تحل ببيته العريق، تماماً مثلما كان وجود حسام نكبة حرص أبوه ألا تحل عليه وعلى قبيلته.. هذا لا يريد الطفل المعاق، وهذا لا يريد الطفل الأسود.. أهم يَقْسمون رحمة ربك؟!..

كان قدومي إلى الحياة بالنسبة إلى والدي عاراً، وسقطة فظيعة.. كان يرى أنها ينبغي ألا تحدث أبداً.. نعم كان هذا رأياً طبياً لكثير من المختصين، لكن السيد جاسر لم يكن لينتظر قرار أحد.. حتى لو لم يقرروا ذلك، فلم

Twitter: @abdullah_1395

يكن ليسمح أبداً بولادة معاق يحمل اسمه، ويضيع هيبته بين الناس.. لكن (آمنة خان) الطبيبة الهندية المسلمة التي التقتها أمي في المستشفى بالخطأ بدلاً من (إخصائية الإجهاض المعروفة) حرضت أمي على ألا تفعل ذلك:

- مدام.. إنتي ما في يخاف الله؟

هذا جوّا فيه روح.. إنتي ليش يسوي قتل ؟..

أنا ما في يقتل إنسان.. هذا حرام.

(آمنة خان) ذكرت أمي بأن تلك إرادة الله، وأنني لو ولدت معاقاً أو مشوهاً ـ كما أكد الأطباء ـ وصبرت على تربيتي ورعايتي، فإن ذلك قد يرضي الله عنها، بل ربما أكون أنا أبر أبنائها بها، وأن عليها أن تتوكل على الله، وترضى بقضائه، خاصة أن الروح كانت تدب في جسدي في بطنها وتشعر بحركتي. خرجت أمي من مكتب (آمنة خان) لتخبر أبي بما دار بينهما:

- الدكتورة تقول إنها ما تنزل أطفال، وما يجوز إننا ننزل الطفل حتى لو كان الدكاترة شاكين في سلامة الجنين.. وبصراحة أنا قلبي ما هو مطاوعني أنزله.

- وش فيها الحرمة هذه.. هي دكتورة ولا شيخة؟!

بالطبع ساء السيد جاسر أن تتدخل تلك المرأة الهندية في شأن داخلي يخصه وحده، وربما كان يرى أنه لا يخص حتى أمي التي تحملني في بطنها.. المرأة في نظره لم تكن تعني أكثر من حضّانة لتفريخ الصغار، أو وعاء يفرغ فيه طاقته.. كان دور أمي بالطبع تفريخنا، أما مسألة إفراغ الطاقة تلك، فكان يعالجها السيد جاسر مع زوجاته الأخريات الجديدات الصغيرات اللائي كان يراعي فيهن تنوع الأعراق والجنسيات.. ومن يدري، ربما كان لي إخوة مثل حسام لا أعرفهم ولا يعرفونني.. ربما كان السيد جاسر أباً

Twitter: @abdullah_1395

لأحد أبناء الطقاقات، ربما لي أخ من دمي يتقاذفه موظفو الأحوال ومكاتب الجنسية والإمارات والقضاة؛ حتى ينتزع اعتراف أبيه بفعلته القديمة التي طوى صفحتها ومضى تاركاً الضياع لمن كان يُفترض أن يعولهم.

السيد جاسر كان رجلاً فحلاً بكل ما تعنيه الكلمة من ذكورة وجاذبية للنساء.. كن يشتهينه، وبعضهن يطاردنه فلا يهدأ لإحداهن بال إلا في ليلة زفافه عليها.. ذكاء الرجل الذي نشطت واتسعت أعمال مقاولاته مع بداية الطفرة التي عاشها مجتمعنا، فتح المضمار أمام جواد ذكورته الذي لم يتوقف أبداً، ولم يفكر فارسه في النظر خلفه لملاحظة شيء، أو مراعاة أحد.. لم يصدق السيد جاسر أن أَمي الفقيرة المستضعفة التي لم ترث عن أبيها الشيخ توفيق سوى آي القرآن التي تحملها في قلبها تتعبد بها ليلاً ونهاراً، وتروح وتغدو من وإلى الحرم متمتمة بها.. بينما لم يكن والدها، جدي الشيخ توفيق، يملك من حطام الحياة الدنيا سوى موضعه الذي يجلس فيه بجوار أحد أعمدة الحرم، حيث يختلف إليه طلاب العلم، وحفظة القرآن.. لم يتصور أبي أبداً أنه سيأتي يوم على أمي تخالف فيه له أمراً، وهي التي كانت تستقبل زوجاته الجديدات في بيتها، وتعد لإحداهن مكانها، وتطهو لها ولزوجها ما لذ وطاب من الطعام، وكأنها عروس أحد أبنائها لا عروس زوجها، حتى أن إحداهن، وكانت مصرية، لم تكد تمضي في دارنا شهراً حتى طلبت الطلاق.. قالت زوجة أبي المصرية إنها تخشى على نفسها غضب الله عليها إذا هي شاركت هذه المرأة الطيبة معيشتها وضيقت عليها.

لم يكن أبي ليتصور أبداً أنها تقف للمرة الأولى في وجهه بهذا الثبات الذي يقف به المنتحر بين قضيبين أمام القطار، وتقول له: "لا".. (لا) هذه كانت كفيلة بتحطيم العيادة على رؤوس من فيها، خاصة بعد مقابلة آمنة خان:

- مستر.. إنت ما في يقرأ قرآن؟..

Twitter: @abdullah_1395

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق صدق الله العظيم.

تأكد أبي بعد مقابلته الفاشلة مع الطبيبة ورفضها إجراء الإجهاض بقوة، أنها هي المحرض الأوحد على هذا الانقلاب الأول من نوعه في منزله، وممن؟! من زوجته المستضعفة التي كانت في حياته أشبه بهواء في البيت يتنفسه بعمق وارتياح في هدأته، أو ينفخه زفيراً حاداً في غضبه.. الجنون سيطر على الرجل الهائج.. كان عليه أن يستخدم آلية ردع جديدة ليرد إلى أمي عقلها!!

- تعصيني؟
- أبداً والله ما عصيتك...
- تمشي كلام الهندية على كلامي؟
- لا والله أنا كل اللي قصدته إن ربنا.....
- إنت طالق يا بنت الكلب.. خلي الهندية تنفعك...

Twitter: @abdullah_1395

عادت أمي إلى بيت جدي تحملني في بطنها بعدما سمعت كلمة طلاقها بأذنيها، وشاهدتها تخرج من فمه كالبصقة، لكن الله يدافع عن الذين آمنوا، فها أنذا خرجت إلى الحياة سليماً معافى. شاء الله ألا أكون (سامي ابن السيد ضاري)، فلم يكن السيد جاسر ليتردد أبداً في إنكار كل ما يربطه بذلك الطفل المعاق الذي حارب فكرة ولادته حرباً ضروساً.. وربما اتهم أمي أنها حملت بي من رجل آخر.. الرجل كان على أتم استعداد لارتكاب أي شيء يحول دون أن يقول الناس إن نطفة السيد جاسر معاقة..

.. (وسبحان الله يا سيدي.. تشاء الأقدار أن يحمل وجهي لون بشرة أمي، ولو أنه حمل لون بشرة والدي لكان لي شأن آخر.. أرأيت ماذا فعل بي.. أرأيت الأبوة المشروطة.. أرأيت العنصرية كيف تجعل من صاحبها طاغية جبارا أعمى البصيرة؟!).

نعم رأيت بل إنني أعتبر نفسي مثلك.. فأنا أيضا أبوة أبي لي كانت مشروطة، فلو ولدت مشوهاً لما كنت أفضل منك حالاً.

كان موقف السيد جاسر حرجاً.. لقد انتصرت إرادة الله، لكن الرجل ظل يعتقد طويلاً أنها إرادة النساء.. كان عليه أن يرد أمي إلى عصمته،

Twitter: @abdullah_1395

طالما أنه لم يعد هناك مبرر لكل ما فعل.. وخصوصاً أن بالمنزل أطفالاً ينتظرون أمهم التي ينظر لها السيد جاسر أنها الخادمة التي طلقها قبل ثلاثة أشهر وسيعيدها مرة أخرى على كفالته لأطفاله.

- انت سبب طلاق أمك.

كانت أول عبارة يوجهها أبي إليّ، وهو يحملني وليداً بين يديه للمرة الأولى.. وكان الاتهام الثاني الذي وجهه إليّ السيد جاسر، بيد أنه تلك المرة كان يخاطبني مبتسماً، بينما قبلُ كان يزأر في وجه أمي بأن تطردني من أحشائها وعيناه على بطنها التي كانت - آنذاك - أبغض مضغة إلى نفسه في الوجود؛ لأني كنت أرقد فيها.. كنت بالنسبة إليه سرطاناً يخشى ولادته حتى لا يلتهم مهابته بين الناس.

جاسر لم يكن ليقبل على كرامته أبداً أن يراه الناس في صورة الرجل الأرعن، الذي يطلق زوجته بلا سبب.. كان الرجل يعي ما يفعله تماماً، حتى إفراطه في استخدام القوة معي لم يكن صلفاً.. كانت نفسها فلسفة القوة التي كانت شريعة بيتنا.. كان يريدني قوياً مع الآخرين.. ولا بأس بأن أكون عنيفاً، أو ظالماً، أو غاشماً.. كان لين جانبي مع الآخرين وعلاقاتي الطيبة مع الناس من وجهة نظره ضعفاً.. كان تسامُحي مع أقراني وعفوي عنهم في مَنطِقه خضوعاً، بل خنوعاً.. يسومني سوء العذاب لا لشيء سوى أن أكره الناس الذين تسببوا في تعذيبي على يديه بتسامحي معهم..

الثمن الوحيد لإرضاء أبي أن أطوح ذراعي في الهواء بقوة حتى تستقر قبضتي على فك أقرب شخص يقابلني في الطريق، حتى إذا انتهى الأمر بكسر فك الرجل، لا بأس، فللسيد جاسر من العلاقات ما يجنب أحدنا العقوبة، مهما أساء الأدب.

كانت وجهة نظر أبي أنني بقدر ما أتلقى من العنف والبطش على يديه وسوطه وعقاله وعصيه، بقدر ما سيصلح حالي، وأكون رجلاً، أكيل الصاع

Twitter: @abdullah_1395

صاعين للآخرين في الخارج.. لكن السيد جاسر أغفل أموراً كثيرة، منها أنني لم أكن مثله أو مثل فارس الذي كان نسخة أخرى عنيفة منه، دون أن يكون له مثل أو نصف أو حتى معشار حظ والدنا من الحكمة والكياسة والتجربة.. لم تكن لي أبداً بنية أحدهما الأسطورية، أو حتى شهيتهما المفتوحة لالتهام الآخرين.. كنت أحمل في صدري قلب الحنونة صابرة، وكانت صابرة تحمل في صدرها قلب أبيها، ولم يكن جدي يحمل في قلبه سوى القرآن والرضا بقضاء الله.. ورثت أمي الرضا عن جدي فرضيت بأبي.. كان زواجه منها بالنسبة إليها ذلك القضاء، وذلك الابتلاء الذي صبرت عليه من أجلي، ومن أجل إخوتي الصغار.. أما فارس فلم يكن يعنيه الأمر.. فرِضاها أو عدمه سيان.. الأهم عند فارس أن يرضى عنه المصارع الأسطوري الذي لم يهزم في معركة، ولم يجرؤ عليه أحد.

كثيراً ما كنت أبتسم إذا تلفظ عليّ أحدهم عندما تثيره قيادتي المنضبطة الروتينية التي تحدث ربكة واضطراباً في طرق العاصمة حيث يحكم قانون الفوضى.. كنت أراه في مرآتي قزماً يجلس فوق كرسي القيادة.. فمن يكون هذا بالنسبة إلى السيد جاسر أو ولده فارس.. آه لو قُدِّر لأحد هؤلاء أن يتطاول على أحدهما مرة، لربما كان الآن في عداد الأموات.. بيد أنهما كان لهما من البنية ما يجعل المرء يفكر آلاف المرات قبل أن يتهور ويسب رجلاً بتلك القوة.. نعم.. هؤلاء الذين ألتقيهم في إشارات وطرق العاصمة يسبونني أو يتعمدون التضييق عليّ بسياراتهم بعد مرورهم بجانبي في محاولة لعقابي على تعطيلهم، أراهم أقزاماً مثل أولئك الذين يجلبونهم لنا في حلقات المصارعة للضحك أكثر منه للإثارة.

في شوارع العاصمة يمكنك مشاهدة تلك المفارقات.. الأقزام الذين يقودون السيارات العملاقة الفارهة.. التافهون الذين يستمدون شخصياتهم وذواتهم من موديل المركبة التي يقتنونها وصنف العود الذي يغطسون فيه حتى أنوفهم.. العجزة الذين يتجاوزونك بهمجيتهم واستعدادهم للقفز على القيم في أصغر صورة لها.. احترام الطريق.

Twitter: @abdullah_1395

ربما لا يكون لأحدهم وزن في نظري، لكن صراخهم في أذني أشبه بأحجار صغيرة تلقى في ماء الذاكرة الذي أحاول الحفاظ عليه في وضع الركود. كلما صدم أحدهم سيارتي من الخلف تذكرت اقتراب ظل أبي من ظلي في غرفته، وأنا واقف بين يديه مطأطأ الرأس، في انتظاره حتى يلتقط عقاله ويعود إلي به.. كلما ضغط أحدهم بقوة على بوق سيارته مستعجلاً إياي للعبور تقفز أمامي قبضة فارس في طريقها إلى وجهي.. كلما لمحت امرأة أحدهم في المرآة تحاول تهدئته وكفه عن السباب يلوح لي وجه أمي الطيب الحزين..

لكنني الآن أستطيع الرد على أحدهم.. أستطيع سبه ولعنه وصفعه على وجهه بقوة والبصق على شماغه.. في كل مرة كانت تجتاحني فيها تلك الرغبة، كنت أستعيذ بالله من شيطاني، وأكبس زر زجاج سيارتي مغلقاً إياه لتختفي خلفه الأصوات.. الآن لا أسمع شيئاً.. أدير المكيف على أعلى درجة ليجتاح الهواء البارد صالون السيارة.. ترتخي عضلات وجهي.. يعتريني شعور مثل ذلك الذي كنت أشعره أمام البحر هناك في مدينتي القديمة - جدة - إثر كل مهانة أتعرض لها على يد أبي أو فارس.. كان حضن أمي يوقف نزف جرحها في قلبي، ثم أمضي إلى شاطئ البحر، أجلس ساعات أمام هوائه البارد، يكفكف الدموع التي تتسرب من عينيّ على غير إرادة مني. كنت أتحاشى النشيج أمام المارة، والبحر يضع ضمادات باردة من رذاذه على جرحي، وضمادات على وجهي المثخن بالصفعات واللكمات، ويبلل شفتي الجافتين من الظمأ والجوع، فالمُهان لا يشرب، ولا يشتهي الطعام.

- كل يوم ذل.. كل يوم إهانة.. إش الشيء الغلط إللي سويته عشان انضرب وانهان كل يوم..
- (تبكي) معليش يا قلبي.. بكرة ربنا يفرجها عليّ وعليك.. الله ينجيك منهم..

Twitter: @abdullah_1395

بمجرد أن أغلق زجاج سيارتي يظهر البحر أمامي قادماً من بعيد، يحمل مراكب الأصدقاء الصغيرة، التي كنا نستمتع بتجوالنا بها في الميناء، قبل أن ننزل منها إلى مقهانا الرخيص، الذي كان أجمل ما فيه ضحكنا.. نعم كنت أضحك كثيراً.. كنت الأول على أقراني في الضحك، ولا أزال أضحك، لكنه ذلك النوع من الضحك الذي ما أشبهه بالصراخ.. أضحك حتى لا أبكي.. أضحك حتى أقاوم رغبتي في الانتحار.. ثَمّ شيء آخر حال أكثر من مرة دوني والانتحار.. أمي.. لم أكن أتصور أبداً أن تنتهي امرأة مثلها من صلاتها لتجد ابنها منتحراً.. لا.. ليست صابرة التي ينتحر ولدها.. ليس بعد كل هذا القرآن الذي تحمله في صدرها عن أبيها وأحمله عنها.. عُبّاد الحرم ونسّاكه لا ينتحر أبناؤهم.. فليفعل الجميع بي ما يشاؤون.. أبداً لن أنتحر.. سأضحك حتى أسقط مغشياً عليّ من الضحك.. سأضحك رغم ركلات الماضي وصفعاته وسبابه.. سأضحك رغم جلافة الحاضر التي أقاسيها هنا في العاصمة.. بعيداً عن البحر، وقارب الأصدقاء، ومقهانا القديم.. سأضحك؛ ربما لأن الضحك إحدى تلك الممارسات الإنسانية القليلة التي لا يزال يمكنني القيام بها، دون أن يكون لها أدنى تأثير عليّ خارج نطاق الحلق والشفتين المفتوحتين في وضع استعداد دائم لإطلاق القهقهات المصطنعة.

ربما صفعات الماضي توقفت منذ إقلاع أول طائرة أقلتني إلى لندن، لكنها قبل أن تتوقف، كانت قد أجهزت على الفرح داخلي.. كان الارتياح يخامرني لأنني سأتخلص أخيراً من سوط أبي، وقبضة أخي الحديدية، لكنه كان أول عهدي بذلك الشعور القاتل، الفرح المنقوص؛ إذ كان علي في المقابل أن أودع أمي للمرة الأولى في حياتي دون أن أعرف متى أعود، وكان قراري الشخصي اللاعودة، إلى أن تندمل تلك الجراح القديمة، وتزول الندبات التي خلفتها لي في جسدي وعقلي وقلبي.

كانت بهجة العصفور المفرج عنه أخيراً منقوصة؛ لأنها كانت تعني توقف مركب الأصدقاء عن الطواف حول سفن الميناء، وخلو طاولة المقهى من

Twitter: @abdullah_1395

ضحكاتنا، أو على الأقل ضحكي بينهم.. لكن دموع أمي جمعت أحزاني كلها في انهمارها على ذلك النحو عندما عانقتني العناق الأخير، ثم سلمتني إلى غربة كانت بالنسبة إليّ طوق النجاة، وبالنسبة إليها حبل مشنقة تلفه بيديها حول عنقها؛ من أجل سعادة عصفورها الذي لم تكن لها القدرة أبداً على تخليص جسده الصغير من آلات التعذيب.

يصعب على المرء أن يخرج من هذا كله بقلب يمكنه الفرح.. عندما يكون القهر بهذا البطش، يصعب على المرء أن يعود إلى سابق عهده بنفسه ثانية.. ثم إن سابق عهدي بنفسي هو القهر الذي لم أر وجهاً آخر للحياة غيره.

الآن ليس لي سوى البحر.. أشم هواءه بمجرد أن أغلق زجاج نافذة سيارتي، أو ألقي بظهري على مسند كرسي مكتبي في آخر المساء، بعد توقف الطابعات، وأجهزة الفاكس، والنقر على لوحات مفاتيح الكمبيوترات، وانطفاء أضواء الصالات والمكاتب، وخلود أجهزتها إلى النوم بعد رحيل أصحابها إلى بيوتهم.. ستار من الظلام يسقط على كل شيء، إلا مكتباً مضاءً طوال الليل، يجلس صاحبه وحيداً، محملقاً في شاشة تلفاز مكتبه الكبيرة.. تختفي مشاهدها شيئاً فشيئاً.. تبتعد أصواتها.. تطفو على السطح مشاهد الذاكرة.. الصفعات والقبلات.. السباب والدعوات.. الضحكات والدموع، ثم يلوح موج البحر من بعيد، يقترب مبتلعاً مشاهد الذاكرة.. أتأمل الرسالة التي اعتدت اصطحابها معي إلى السيارة.. إلى المكتب.. إلى البيت.. أقرؤها كلما خلوت إلى نفسي، كأنني أقرؤني.. كأن أحداً كتبها من داخلي.. ذلك المضطهد لأنه أسود يتحدث كثيراً عني عندما يتحدث عن مأساته.. ربما تختلف قناعات من يضطهدون الناس وأسباب اضطهادهم للآخرين، لكنهم يتفقون في نظرتهم الفوقية لكل شيء حتى وإن كان هذا الشيء قطعة منهم.

مرة أخرى يقتحم الموج مكتبي.. يضرب مسطح شاشة التلفاز الكبيرة.. يمسح بهوائه على رأس الطفل الثلاثيني الذي يبتسم لحضوره، ويسلم

Twitter: @abdullah_1395

أنفه وجبهته لأنسامه الطرية، فينام ورذاذ الموج يلاطف بشرة وجهه التي احمرت من وقع صفعات الذاكرة.. يوقظه رنين جواله قبيل الفجر.. يأتيه صوت أمه:

- سامي.. انت فين يا حبيبي؟
- في المكتب يا أمي.
- أتأخرت يا عيوني عن بيتك..

Twitter: @abdullah_1395

Home sick

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

اليوم أنا Home sick.. تعبير اعتدنا جميعاً في لندن استخدامه عندما تعتري أحدنا نوبات الحنين إلى ديارنا وأوطاننا. خالد، صديقي السعودي الذي التقيته في لندن، كان يعمل في السفارة السعودية هناك وكان في بداية الخمسينيات من العمر، أول من سمعت منه ذلك التعبير، بعدما يئس من الحصول على إجابة محددة في أحد الأيام عن السر وراء حالة الكآبة التي اعترتني، وأفسدت علي وعليه وعلى زوجته (نعيمة) يوم إجازتنا الأسبوعية التي ذهبتُ لقضائها بصحبتهما في المنزل.. ذلك اليوم حاول خالد وزوجته المغربية (نعيمة) بطريقة مباحثية كوميدية أن يسبرا غور تلك الأزمة التي أعثرت صديقهما الصغير.. كانا يتناوبان الأسئلة عليّ.. استعرضا قائمة همومي المعتادة.. سألا عن حال أمي الصحية.. عن وضعي المالي.. عن مشروعي الإعلامي الذي كنت أعمل عليه في الجريدة.. عن سير دورة اللغة التي كنت أتلقاها في معهد اللغة.. عن رضاء رؤسائي في المؤسسة.

سألتني نعيمة عن الطعام الذي أعدته لنا، لربما كان هو السبب وراء حالة اكتئابي، حينها ضحكت، وضحكا، ثم قال لي خالد:

- فهمت.. أنت Home sick

Twitter: @abdullah_1395

أحسست لحظتها أنه التعبير الأنسب عن حالتي.. نعم، كنت مشتاقاً إلى الوطن، رغم عزمي ورغبتي ألا أعود إليه أبداً.. رغم شعوري بالفرار من حبل مشنقة كان قد أحكم بقوة حول عنقي، ثم نجوت منه بمجرد ما ارتفعت بي الطائرة تشق السماء إلى عالم الحرية والخلاص.. رغم الأيدي التي كانت تتحين اللحظة التي أعود فيها بفشلي لتمتد إليّ بالإيذاء.. رغم أعمال تخليص البضائع الجمركية في الميناء التي كانت تنتظر عودتي إلى شقائها ومهانتها وبؤسها.. رغم الصراع الذي كان ينتظرني في العمل في مكتب الجريدة بالرياض مع قدامى الصحافيين، ورفضهم بزوغ نجم آخر في سمائهم، خاصة إذا كان ذلك البزوغ لشاب صغير، يُخشى على أرزاقهم ومكانتهم من وجوده ونجاحه والقبول الذي حازه لدى الرؤساء.. رغم كل شيء كنت Home sick رغم أنني لم أكن أنوي العودة أبداً.. كان حنيناً لمجرد الحنين، حنيناً مع إيقاف بل استحالة النفاذ، فلم يكن ثَمّ شيء أعود إليه سوى أمي.. وأمي، التي قررت بعد عمر من الهوان والعذاب والتلاشي أن تنفصل عن مدار السيد جاسر ، خاصة بعدما فُعل بي أمامها ولم تستطع أن تقدم لي شيئاً، كانت أحرص الناس على بقائي خارجاً حتى أحقق كل ما يمكنني تحقيقه لنفسي من أمان، ومن النجاح ما تقرّ به عينها التي طال بكاؤها من أجل تعذيبي الذي لم يكن ينقطع أبداً، بسبب وبغير سبب، على أيدي أبي وأخي فارس.. فقط كل ما كان يعتريني من حنين، مجرد شيء من ذلك الذي يعتري الجميع.. نشاط عابر للذاكرة لا يلبث أن تكسر حدته العودة للعمل، أو ملاطفة أحد الأصدقاء، أو دعوة إحدى الصديقات إياي للرقص أو حتى الجري في شوارع لندن إذا لزم الأمر.

الليلة أيضا أنا Home sick، رغم أني أجلس في مكتبي في الرياض، وخالد لا يزال معي يرعاني ويدق هاتفي من حين إلى حين فيأتيني صوته يطمئن على أحوالي، اتصالات خالد أصبحت أكثر كثافة بعد أزمتي الصحية الأخيرة التي سقطت مغشياً على أثرها، وأمضيت أياماً عشرة في

Twitter: @abdullah_1395

غرفة العناية الفائقة.. عنفني الأطباء بشدة إثر إفاقتي.. لم يصدق الطبيب المعالج أن يرتفع ضغط شاب ثلاثيني إلى هذا الحد القاتل.. عندما استفسر عن عدد ساعات عملي، وعلم أنها تمتد إلى ثماني عشرة ساعة يومياً ثار عليّ، وهددني بأن المرة المقبلة قد يفوت الوقت قبل إنقاذي، وأنه عليّ أن أزاول عملاً مخففاً حتى تمر مرحلة النقاهة من الحالة التي أصابتني وألا أعرّض نفسي لضغوط العمل أكثر من اللازم، لذا كان الجميع يحثونني على العودة إلى المنزل مبكراً.. وكان خالد الذي غادر سفارتنا منذ سنوات بعد عودتنا من لندن، وأسس شركته الخاصة، يداوم على الاتصال، حتى يطمئن على صحة صديقه الذي تبناه في لندن.. كان خالد أشبه بأخي حبيب، إلا أن ظروف خالد وقربه كانا يسمحان له برعايتي أكثر من أخي الأكبر، الذي كان غارقاً في دراسته في المنطقة الشرقية بالجامعة، ولم أكد أمضي معه إجازة الصيف بعد فراري إليه من تعذيب فارس الذي تسبب في قطع علاقتي بأبي؛ بعدما أشهرت السلاح في وجهه في آخر التحام بيننا، ثم قمت بسبه فطال السب والدي، فلما علم السيد جاسر أن الصرصور الذي اعتاد دهسه بحذائه تلفظ على أخيه الكبير، بل وعليه شخصياً، لم يستدعني إلى غرفته تلك المرة، بل بادر بدهسي بحذائه وقبضتيه وسوطه وقدمه وعصاه مرات ومرات أمام إخوتي البنين والبنات اللائي عاودن الصراخ للمرة الثانية في ذلك اليوم، بعدما علا صراخهن ظهيرة ذلك اليوم، على أثر إشهاري السلاح في وجه فارس الذي يئست من ضربه بيدي، ومن فرط ما انهال على وجهي صفعاً هانت علي نفسي ونفسه وقررت أن يتوقف عن صفعي أو أقتله.

- قرب إن كنت رجال ابن رجال.. ان ما قتلتك..
- أنت تقتلني؟!
- إي والله أقتلك.. صار لك سنين تضربني.. لكن اليوم والله لا أقتلك لو مديت يدك عليّ يا فارس.. ليش واقف وساكت.. خليني أشوف رجالتك وإنك من صلب رجال..

Twitter: @abdullah_1395

عندما عاد أبي لم يحاول أن يفسر أو يستفسر عن شيء من كل ما حدث، أو يعرف لماذا أشهر سامي الصغير الضعيف السلاح في وجه أخيه.. كل ما فكر فيه السيد جاسر ما طاله من السب في غيابه، وعلى يد من؟! على يد الصغير الحقير الذي لم يعرف في هذا البيت سوى تلقي الصفعات على خده الأيسر فيدير لها خده الأيمن لتلقي المزيد منها.

كان هذا شأنه دائماً.. ذاته.. كرامته التي لم يكن يسمح لأحد بالاقتراب من خطوطها الحمراء.. مهابته التي خشي أن يكون مسها بعض خدوش صغيرة للصرصور الذي تمرد أخيراً.. سحقني سحقاً على مرأى ومسمع من الجميع لأكون عبرة لمن يعتبر.. محا القليل القليل من كرامتي الذي بقي بعدما فعله بي فارس، لولا إيقافي إياه بقوة السلاح.. كان لا بد لي من أن أبتعد.. أترك كل شيء.. أواجه مصيراً أعيشه فرداً لا أراهن على شيء منه، ولا أأمن عواقبه.. لم يكن شيء في العالم أفظع أو أخطر أو أشر مما كنت فيه.. كان حبيب ملجئي.. ذهبت إليه في المنطقة الشرقية.. التحقت بدورة كمبيوتر هناك.. لم يكن متفرغاً لي، لكن القليل من دفئه ولين جانبه الذي يوليني إياه في أوقات حضوره النادرة إلى السكن كان كافياً.. كان يكفيني منه حتى لا شيء، ما دام نزف كرامتي قد توقف.

خالد كان يكمل دور حبيب الذي افتقدته في الشرقية، بعد مغادرته إياي لابتعاثه للدراسة في الخارج، وعودتي إلى جدة، لمواصلة حلقة جديدة من الشقاء، انتهت بحصولي على الشهادة الثانوية، ثم السفر إلى لندن.

خالد.. كان صديقي، وأخي، وأبي، وأمي أحياناً، خاصة بعدما تركت الحياة مع مدام (ليا) سيدة الأسرة التي اختارتها المؤسسة لاستضافتي في لندن.. مدام (ليا) كانت أماً بديلة، أرسلها الله إليّ في أيامي الأولى في لندن، وأنا لم أزل بعد شاباً صغيراً.. دعاء صابرة كان يلاحقني في كل مكان.. عين العناية لم تغفل عني أبداً.. أبدلني الله أماً أحبتني واحتضنتني ورعتني كما لو كانت أمي السيدة صابرة، وأباً لم أكن أراه إلا قليلاً كلما سنحت الفرصة؛ لانشغاله الدائم بأعماله، وأخا كبيراً لم أره أبداً يدعى

Twitter: @abdullah_1395

(مارك)، كان يقيم خارج البيت برفقة فتاته، وعلمت فيما بعد أن غرفتي الرائعة التي كانت تطل على حديقة المنزل الخرافية كانت غرفته في الأصل، وأخاً صغيراً رائعاً يدعى (أوليفر)، تعلق بي كثيراً..

عائلة نورمان كانوا أهلاً حقيقيين، منزل هادئ لطيف، النظام عنوان كل شيء فيه، واحترام حريات الآخرين أولوية أولى تتقدم كل الأولويات بما فيها حرية الفرد.

في منزل نورمان كنت أنام آمناً، لا أفكر في شيء إلا إراحة جسدي المجهد المرهق من أعمال اليوم الشاقة والانكفاء على شاشات الأجهزة للانتهاء من مشروعي الإعلامي الذي كلفت به.. كان علي أن أنجح نجاحا يشجع الإدارة على إبقائي أطول فترة ممكنة في لندن، ويثبت لرؤسائي أن بقائي هناك في صالح العمل.

في منزل نورمان كان كل شيء مواتياً لإنجاز شيء ما من هذا القبيل، بل ولإنجاز كل شيء كنت أحلم به.. كان الحب أكثر ما يربطني بهذا البيت.. يد مدام (ليا) التي امتدت لتمسح دموع الماضي، دون أن تعرف شيئاً عنها، وراحة أوليفر الصغير الواعد، الذي كان يدرس في أرقى مدارس إنجلترا، التي كانت تداعب تلك الندوب التي تركها الأمس القريب على وجهي.. كلب الأسرة الذي كان ينبح خارجاً في الليل نباحاً لطيفاً متقطعاً، لا يشي بأن ثَم غريباً في الخارج، وكأنه يقول لي: نم.. لا خطر هناك..

بعد مغادرتي أسرة نورمان كنت أظنني سأبقى وحيداً، خاصة وأني قد اعتدتهم، واعتادوني، وأحببتهم، وأحبوني، خاصة مدام (ليا) التي لولا مبدؤها ومبدأ الأسرة احترام حريات الآخرين، لما تركتني أرحل أبداً، لكن دعوات أمي كانت ممتدة المفعول أكثر مما تصورت.. رزقني الله خالدا الذي اعتبرني مشروعه الإنساني في لندن، الذي جاهد كثيرا من أجل نجاحه.

من عجائب الأقدار أن تسوق إليك من لحمك ودمك أخا جلادا مريضا ترتفع قهقهاته كلما ارتفعت صرخاتك تحت لهيب سياطه، ثم تسوق إليك شخصا لا يربطك به شيء، ثم تملأ قلبه حبا لك وعطفا وحنوا عليك.. ما

Twitter: @abdullah_1395

أكثر دموعي التي تشربتها معاطف خالد، وما أكثر ابتساماتي التي رسمتها على وجهي (نعيمة) زوجته.. كان بيتهما بالنسبة إلي عشا دافئا أتشبع من حنوه في الساعات التي أقضيها لديهما في عطلة الأسبوع.. كانت راحتا (نعيمة) تضعان أمامي أطباقا من الراحة والاحتضان والمودة على طاولة الغداء، ويقدم لي خالد فاكهة الحب والإخلاص والأخوة على طاولة العشاء.. لا أنسى جولاته بي على الجالية السعودية وهو يصحبني في يده كطفل صغير يقدمه إلى العالم، ويقدم العالم إليه.. لا أنسى دأبه في البحث عن جامعة مميزة لاستكمال دراستي في أعرق الجامعات الإنجليزية.. كان حلم خالد أولا قبل أن يكون حلمي أن أتميز وأتفوق في دراستي التي ستؤهلني لحياة عملية ناجحة بإذن الله، وكانت سعادته بنجاحي وتفوقي أكبر من سعادتي.. أشياء كثيرة تغيرت وتبدلت.. حياة ولدت من رحم المجهول الذي حطت طائرة لندن بأشلاء جسدي وعقلي على أرضه.. ضحك، وبكاء.. طعام ومرض وجنون، وأحاديث لا تنقطع.. نكات وأحزان.. تفاصيل حياة جديدة تنقلت فيها من مسكن إلى مسكن، ومن جيران إلى جيران.. لكن بيت خالد وحده ظل بالنسبة إلي بيتاً، لا مسكنا أتردد عليه، وهو وزوجته بالنسبة إلي بقيا أهلا لا مجرد رفيقين يشاطراني عطلتي.. لا أنسى ابتسامة نعيمة لبؤسي، عندما قلت لها مرة وأنا جالس في كرسي السيارة الخلفي، بينما كان خالد يجلس بجوارها وهي تقود السيارة: إنها المرة الأولى التي أشاهد فيها حقيقة وليس في الأفلام امرأة تقود السيارة.. ضحكت نعيمة وعبرت بالمغربية عن أن هذا شرف عظيم لها.. بالطبع لم يكن شرفاً.. نعيمة فقط كانت تداعبني.. العزلة تبقى عزلة، ويظل أصحابها على هامش العالم، يشاهدونه كما يشاهد القردة وجوههم في مرآة.. بالنسبة إليّ فقد تخطت العزلة كونها سياجا أحاط بي، تماما مثلما أحاط بالآخرين في وطني، حتى جعلت ذلك القطيع من البشر الذي يعيش خلف أسلاكٍ حظيرةٍ، لا يعلم شيئا عن الحظائر المجاورة..

لقد تخطت العزلة بالنسبة إليّ ذلك كله، حتى أن سياجها كان يفصلني

Twitter: @abdullah_1395

عن نفسي.. يعزل بعضي عن بعضي.. كنت مطالبا بأن أشعر بزهوي وافتخاري التامين بكوني نطفة للسيد جاسر قُدِّرَ لها أن تكون بشراً، وأن أقبل في الوقت نفسه بنزع شامل لحرياتي على يديه أيضاً.. كنت مطالبا بأن أكون وحشا مفترسا يتحاشاه كل من يقابله في الطريق، وفي الوقت ذاته جرذا مذعورا يفر إلى شقوق جدران المنزل إذا سمع صوت أخيه قادما في الخارج.. كنت مطالبا بأن أكون ناجحا ومتفوقا في دراستي، وفي الوقت ذاته لا ينبغي لي أن أتخطى المرحلة الدراسية التي يغط فارس في حجراتها الدراسية منذ سنوات دون أن يتجاوزها..

- فرحان عشان اتفلسف عليّ الأستاذ بالفصل قدام الطلاب وقال: ليش ما تصير مثل سامي؟
- لا طبعاً.. كيف أفرح إن المدرس يتكلم على أخوي.. لكن كان عنده حق.. انت ما بتذاكر ولا بتحل واجباتك.
- ترى إن فكرت تنصحني مرة ثانية وتسوي شاطر عليّ راح أدعسك بجزمتي انت والمدرس قدام الطلاب في الفصل.
- أنا ما بانصحك.. أنا أتمنى لك التوفيق وبقولك إن كلامه عشان مصلحتك بس.
- مالك شغل بمصلحتي ومستقبلي.. وخليك رجال ولا تتفلسف عشان لا أخلي الطلاب يشوفوا رجالاتي وأنا أمسح فيك بلاط الفصل.

العزلة صنعت مني أشخاصا عديدين في شخص واحد.. صبي صغير تتعارك في جوفه الأضداد، وتتنازع الصفات وجوده. كانت ابتسامة نعيمة المشفقة تعني أنها أدركت ذلك كله بوعي مغربية لها سنوات تعيش في لندن، خارج أسوار عزلتنا، حيث يعرف عنا الآخرون الكثير الكثير.. يعرفون عنا ما لا نعرفه نحن عن أنفسنا.

نعيمة أدركت أنني واحد من أفراد ذلك العالم، والفارق بيني وبين

Twitter: @abdullah_1395

الآخرين من شركاء عزلتي، فقط أنني كاشفت نفسي وكاشفتها وكاشفت خالداً، الذي أسهم خروجه منذ سنوات من طوقنا في علاجه ونقاهته، واجتيازه عقبة العزلة التي نعانيها.. ملاطفة نعيمة كانت محاولة منها لتخفيف وطأة الأمر علي.

كان شيء ما داخلي ينفتح على العالم.. عين تحملق بقوة في بقعة الضوء التي سقطت من طائرتي وسطها.. أنف تستنشق نسيم حديقة عائلة نورمان اللندنية والحدائق المجاورة، وتشارك رفاق الحرية طريقا نهايته الأفق.

ربما أنا الآن Home sick لأنني أتذكر هذا كله.. نعم أنا الآن في وطني، لكن روحي في وطنها الأب الذي حماها وكفل لها حريتها وكرامتها وحقوقها للمرة الأولى.

ربما الآن أستطيع بعد أن أصبحت كائنا قويا مستقلا إدارة حياتي، لكنني للآن لم أنس حياة الصبي الذي كان يسكنني، الصبي الذي كان يتسول الحنان في بيته، والأمان في الشوارع الخطرة، التي يطارد فيها اللوطيون فرائسهم من الشياه الشاردة.. السعادة متاحة الآن، لكن الشخص الذي يسكنني ليس متاحا لشيء سوى العمل والعمل والعمل.. العمل حتى السقوط مغشيا عليه، وحمله إلى غرفة العناية الفائقة؛ ربما لأني منذ سنوات لم أعرف أو أسمع عن شيء سوى العمل؛ خوفا من عودتي إلى مقصلة السيد جاسر وولده الأثير فارس، أو عودتي إلى مكتب الرياض، وكنت حريصا على بقائي خارجاً.. كان علي أن أعمل وأعمل وأعمل، حتى وإن لم يكن هناك عمل.. أختلق من الأعمال الإضافية ما يكفي لابتلاع المزيد من ساعات الوقت؛ تحاشيا لانفرادي بنفسي، تحاشيا لأن يفكر هذا الثور المغمّى المربوط في ساقية العمل منذ سنوات في الحقيقة التي طالما تجنب الوقوف أمامها، أنه بلا هدف. الصغار دائماً ينتظرون مكافأة نجاحهم من آبائهم التي تبدأ بآلاف الريالات، وتنتهي في أبسط صورها وأجملها بحضن دافئ أو قبلة على الجبين.. بالنسبة إلي كان النجاح دائماً ضرورة للإفلات من طائلة العقاب.. العمل بالنسبة إلى الشبان في أوطاننا يبدأ غالبا بعد انتهاء

Twitter: @abdullah_1395

الشاب من دراسته أيا كانت، خاصة إذا كان ابنا لأحد الموسرين مثلي، رغم ذلك كان علي أن أعمل منذ كنت صبيا لأنفق على نفسي، حتى أستطيع العيش بعيدا عن حظيرة السيد جاسر، التي يستهوي صاحبها تعذيب حيواناته، وبعيدا أيضا عن راعي البقر الذي اعتاد اختبار عضلاته في جسدي، بل ولأنفق على أمي، التي بعد طلاقها الأخير البائن من أبي، وتنكره لسنوات العشرة والأبناء، لم يعد لها بعد الله غيري.. لسنوات ظللت أنا وصابرة نعاني معاناة الطقاقة المسكينة وولدها الجريح حسام.

بالكاد استأجرت شقة مفروشة من غرفتين لكي أسكنها أنا وأمي بالقليل الذي كان يدرُّه عليَّ عملي في الميناء، كانت وجباتنا التي نصبح ونمسي عليها كسرات من الخبز الحاف مع الشاي الذي يقدم مجاناً في صالة الدخول للشقق المفروشة التي سكناها، وفي بعض الليالي أعود إليها ومعي سندوتشات (فلافل) التي كانت تسد جوعنا لباقي اليوم.. أما الأيام التي أنجز فيها عدة عمليات تخليص جمركية فأعود وأنا أحمل معي كمية من الأجبان والزيتون والبيض لكي تتنوع مائدتنا عن باقي الأيام.

- أحلى ساندوتش فلافل مع الطرشي لأحلى أم في الدنيا..
- الله لا يحرمني منك.. خلاص أنا أتعشيت تميز[1] مع الشاي..
- والله ما يدخل جوفي أي شيء إلا إذا أكلتي معايا.. دحين أنا واقف عند المعلم وقلت له يتوصى بالساندوتش حقك ويزيده طرشي وتقوليلي آكل لوحدي!

بعدين إنتي دائماً تقولي: لقمة هنية تكفي ميه .. يللا سمي بالله.

السيدة الطقاقة وولدها عندما هجرهما المدعو ضاري، كان لديهما من المال ما يشعرهما بالأمان، بينما أنا وأمي لم يكن لدينا سوى الثقة بالله وأنه

(1) التميز: خبز أبيض يقوم بصناعته الأفغان داخل أفران مخصصة له، يُتناول مع الفول والأكلات الشعبية.

Twitter: @abdullah_1395

لن يضيع حاملة القرآن، وولدها الذي افتدته من الذبح بطلاقها.. صابرة التي تنكر لها زوجها بعد سنوات العشرة بالمعروف والطاعة العمياء الصماء الخرساء، والطقاقة زوجة الهارب، ذاقتا مرارة كأس واحدة يقدمها الرجل للمرأة في بلادنا، لا تفرق بين لون المرأة أو أسرتها.. كلهن مقهورات.. كلهن أسيرات.. كلهن بلا حقوق.. بلا كرامة.. بلا إرادة.. مع اختلاف بعض الديكورات والألوان التي تجعل من هذه طقاقة محتقرة، ومن هذه سيدة محترمة، ولكنها في واقعها أيضا محتقرة..

لأن هذا كله كان ينتظرني، ولأن تلك حقيقة الأشياء، بممارسة أعمال المكياج الاجتماعية الزائفة عليها؛ من أجل هذا الكذب المَرضيّ الذي يمارسه السواد الأعظم من مجتمعنا على نفسه، من أجل هذا كله، كان قراري.. ألا أعود..

الشبان يدرسون ويعملون في الخارج حتى يعودوا لأوطانهم مسلحين بعلمهم وشهاداتهم، بينما العمل والدراسة في إنجلترا كانا بالنسبة إليّ رهاني الوحيد لأبقى خارج وطني.

دوافعي للعمل كانت تختلف دائماً عن دوافع الآخرين، حتى أصبح العمل هدفا وعادة أصبحت ضارة بالنسبة إلي حسب تقرير الأطباء الأخير.. لذا أنا اليوم Home sick؛ لأنني لا أعرف ماذا أفعل غير العمل.. كنت أود أن أقول للأطباء إن أخشى ما يخشى علي منه ألا أعمل، أن أجلس هكذا فريسة لصور الماضي التي تتحين اللحظة المواتية للقفز على مشاهداتي وطمرها فتحتل عينيّ وذاكرتي معاً.

في الماضي كان هناك من ينجح في انتزاعي من خوفي وحزني ونقمتي على كل شيء.. كان هناك من ينجح في إضحاك الصبي الذي يتقلب في موج الدموع الثائر خلف ضلوعه.. (صباح) صديق الطفولة كان يفعل ذلك، حتى بعد سقوطه من أعلى الطريق الجبلي هو وأسرته بالسيارة، وملازمته

Twitter: @abdullah_1395

كرسيه المتحرك.. كان يحتاج إليّ كثيرا لأرعاه، تماما مثلما كنت أحتاج إليه ليشاطرني وحدتي الطويلة الموحشة.. بيت (صباح) كان مفري وملجئي، وأنا كنت شعاع الضوء الذي يفتح له نافذته من فوق كرسيه المتحرك..

كان يستقبلني بشتائمه اللذيذة التي تبتسم لها أمه وأخته كلما تأخرتُ عنه، وأبادره بالنكات التي تنطلق بعفوية مني بمجرد أن أرى وجهه المحب الحنون.

- يا أخي إنت ما عندك بيت يلمك؟.. فارق أهلي وفكني شرك وانقلع..
- إذا جيت بيتك اطردني يالدب الأجرب.. أنا هنا ضيف عند خالتي وبنت خالتي.
- بيت مين يا روح أمك؟.. أقول يللا انقلع لا أقوم أكسر الكرسي على راسك.. وأسحبك من اذنك للشارع يا متشرد..
- لو قمت من فوق الكرسي لك بوسة على شفايفك الحلوة..
- لا يا خويا الله لا يجعلني أقوم من فوق الكرسي إذا فيها شفايفك الوسخة اللي كلها فواكه وخضار الميناء.
- الميناء إللي ما هي عاجبتك.. جايب لك منها كرتون مانجا هندي (ألفونسو) من النوع الفاخر اللي عمر أهلك ما اكلت مثلها يا حيوان.. يللا أنا ماشي عند أمي وخليك مثل القرد لحالك..
- الموضوع فيه ألفونسو؟ الله يرحم أمك تعال.

كثيرا ما كنت أشعر وأنا جالس بين يدي صباح أنني أجلس على كرسي مثل كرسيه الذي يجلس عليه، الفارق بيننا أن صباح كان سعيدا راضياً. بينما أنا كنت حانقا غضوباً.. ربما أن صباح فقد قدميه، لكنه ظل محتفظا بالحب، دفء أمه وأخته، أسرته الصغيرة التي قدمت له ما لم تقدمه لي عائلتي الكاسرة المتوحشة التي كانت تعيش على افتراسي ليل نهار.. صباح كان بإمكانه دائماً فك هذا الطلسم، وانتزاع الضحك من حلقي.. غرفته

Twitter: @abdullah_1395

الخاصة في منزله كانت عالمي السعيد الذي أنطلق إليه قادما من جحيمي الأسود.. أغاني مدينة صباح القديمة التي أتى بأشرطتها من بلدته منها، كانت مادة السهر الماجن الضاحك، وصباح يكشف لي أسرار مدينته القديمة التي تركها بعدما استقرت أسرته في جدة، وحكايات المثليين وطقوسهم التي نتندر بها ونمارس ضحكنا المكتوم عليها في غياب أمه وأخته، ودائماً تنتهي بأن ينعتني بـ(كلب) أو (حمار) عندما أقول له إن اسمه كان يؤهله لمستقبل واعد في مدينته القديمة، ثم يرميني بأقرب شيء تطوله يده، وأنا أرتمي فوق سريره من الضحك.. نفيق أنا وصباح من شغبنا الطويل على غياب يوسف الذي يكون في استقبال القهوة، وما تجود به علينا عائلة صباح من مأكولات، فما أن يبدأ شجارنا حتى يتسلل إلى الطعام والشراب، وبانتهاء مشاجرتنا يكون قد أجهز على الطعام والشراب، ثم لا يمانع أن نكيل له بعض اللكمات والركلات جزاء فعلته، بينما يكون غارقا في ضحكه على غفلتنا وغبائنا.

في منزل صباح كانت تنتظرني أسرتي الحقيقية التي تحبني وتحنو علي كلما عدت إليها بكدمات وجهي، ونزف قلبي الصغير.. وعلى رمال الشاطئ كانت تنتظرني ريم، أول امرأة أغمضت عينيها على كتفي.. أول حظي من النساء الجميلات.. لم يكن لفتاة من فتيات جدة أن تتغاضى عن مئات الشبان المتأنقين المتعطرين بالعطور الباريسية، وتلتفت، بل تشعر أصلاً، بوجودي أنا المشرد، الذي اعتاد السير بسرعة لإنجاز تخليص شحنات الفاكهة من جمارك الميناء... كان هذا خياري الوحيد بعد عودتي من عند حبيب بالشرقية، بعدما اتخذت قرار الخروج النهائي من بيت الأشباح الذي كنت أعيش فيه.. سافر حبيب إلى بعثته، واضطررت إلى العودة.. كان عملي في الميناء خيارا وحيدا أمامي وعدني به أحد الأفاقين مدعيا أنه على علاقات بأشخاص مهمين في الميناء.. عندما ذهبت إلى الميناء علمت أن الفتى الأفاق كان كاذباً، لكنني كنت قد ذهبت، وقررت ألا أخرج من دون عمل.. كانت فرصتي التي لم أكن لأفرط فيها خاصة بعدما كاد ما

Twitter: @abdullah_1395

بقي معي من المال الذي تركه لي حبيب ينفد.. ألقيت بنفسي في طريق أحد المستوردين الكبار.. كان مصرياً، وكان يعمل باسم أحد التجار السعوديين؛ كون النظام لا يسمح له بالعمل باسمه في السعودية.. رجوته أن أعمل معه.. تبسم الرجل من مغامرة الحدَث الصغير الذي لا يعي ماذا يفعل بنفسه..

- بُص.. أنا حاجربك يومين.. ولو إني متأكد بعد أول يوم حتطفش ومش حاشوف وشك هنا تاني..
- اتفقنا.. جربني وراح تشوف..

ألقاني المصري في الاختبار الذي كان يثق بأنني سأفر منه فراراً، لكنني نجحت.. كانت مسألة حياة أو موت.. لم يكن ينتظرني إن أنا فشلت حينها سوى العودة إلى بيتنا أو الموت جوعاً، والأخير بالنسبة إليّ كان أهون.

عملي في الميناء كان مشهدا معادا أو ربما المشهد نفسه، من مشاهد حياة المتشرد حسام.

..(صارت حياتي عبارة عن انتظار لأي مساعدة تأتي لأمي حتى أستطيع أخذ أي شيء منها حتى أذهب للأحوال المدنية لأستخرج البطاقة.. وعندما علمت أن روحاتي وغدواتي بين المحكمة وطلب الصك إلى ما لا نهاية من الطلبات لن تفيد شيئاً.. جلست بالبيت 3 سنوات.. كانت عبارة عن تدخين + بكاء + هم + قلة أكل + تفكير حاد + قلة السائلين).

أنا أيضا كنت كذلك.. تدخين + بكاء + هم + قلة أكل + تفكير حاد + قلة السائلين، لكن قلة الأكل بالنسبة إلي كانت لضيق ذات اليد، فأصبحت الشابورة مع الشاي وجبتي الرئيسية وأحيانا الوحيدة.. لم يكن عملي المهلك ليسمح لي حتى بممارسة الحزن، كان علي أن أتعايش مع الحزن، أبتسم له،

Twitter: @abdullah_1395

يرافقني طوال ساعات عملي في الميناء لما وصلت إليه من حال رثة قذرة مهينة، ثم أعود إلى الغرفة التي استأجرتها آخر الليل يأخذني حزني في حضنه، ويسمح لي بفاصل من البكاء قبل النوم.

علمني عملي في الميناء المشي بخطى مسرعة، بل الجري أحيانا لإنهاء إجراءات التخليص من مكتب إلى مكتب.. علمني أيضا ألا أكترث كثيراً، بل أبدأ بمظهري الذي لم يكن لدي وقت للاعتناء به، أو حتى الالتفات إليه.. لم يكن ثَمّ شيء يغري إحداهن بي، لكن ريم، المطلقة الجميلة الصغيرة، أغراها ذلك، كانت تحتاج إلى شقي يشعر بشقائها، لا مدلل يعبث بها وبمستقبلها، كانت تحتاج إلى رجل أكثر من حاجتها إلى جلباب مهندم أو نوع عود فاخر، تحتاج إلى مطحون يقدم عرق جبينه مهرا لها، أكثر من حاجتها إلى ثري ينتزع منها متعته، ثم يرميها لقمة سائغة للآخرين..

ريم كانت تحتاج إلى أحد يحبها، ينسيها مذاق الحب المعطوب الذي كان يتقيؤه عليها الظالم الذي باعوها إليه.. وكنت أتذوق للمرة الأولى نكهة الحب الذي كنت أسمع عنه كثيرا من الآخرين، دون أن أفكر - أو يفكروا بالطبع - أن أحدا بهيئتي الرثة تلك وقدمي المتشققتين ويدي الخشنتين يمكنه أن يكون يوما أحد أبطال حكاياته.. لكنني كنت بطل ريم، أجمل نساء جدة، الهاربة إلى حضن الشاب الصغير من أيدي الفحول المتعرقة التي تمتد إليها من كل اتجاه، ولعابهم الذي يسيل على ذقونهم طمعا في ضجعة معها.. بينما أنا لم أكن أفكر في شيء من هذا كله..

ريم بالنسبة إلي كانت تلك الراحة الملساء الزكية الرائحة التي تضعها فوق جبيني فتمتص تعب اليوم وغضبه وصراخه ومطارداته بين مكاتب الموظفين في الميناء، ثم ينبعث إلى رأسي وجسدي منها دفء ريم الذي يغشاني سكينة تقرّ بها نفسي وأعضائي المتعبة.. ريم بالنسبة إليّ كانت تلك الأحاديث التي لا تتوقف منذ صعودها إلى جواري في السيارة إلى أن تقف عجلات سيارتي على رمال الشاطئ أمام البحر، كل منا يراقب في مداه أحزانه، ثم يهيج البكاء في صدر كلينا، فتقترب ريم مني حتى ترتمي

Twitter: @abdullah_1395

في حضني الخجول الذي يكون دائماً في انتظارها أن تبدأ.. المرة الأولى التي بادرت فيها بجذبها إلى حضني كانت الأخيرة أيضاً، عندما قرر أبوها بيعها لعجوز ستيني، ألقى حفنة من النقود في حجر أبيها، وعاد بريم إلى حظيرته.. طال عناقنا في ذلك الأصيل ولكن بلا فائدة.. عادت ريم إلى أهلها بعدما وعدتني وأقسمت أمامي أنها لن تنتحر، وأنها ستسلم لقضاء الله، وعدت أنا بخيبتي إلى صباح، بعدما فشلت في تقديم شيء للمرأة الأولى التي أحببتها.. كنت بالكاد أوفر ثمن طعامي ووقود سيارتي القديمة ومصروفات دراستي.. وكانت ريم تحتاج إلى أكثر من ذلك.. بعدها آليت على نفسي ألا أرتبط بامرأة أبداً، فلست في حاجة إلى مزيد من القهر والمهانة.

- سامي.. ترى ما راح نتقابل ثاني مرة؟!
- وإيش الفايدة يا ريم؟
- تراني محتاجة لك يا سامي..
- وأنا محتاج لكي أكثر.. لكن صدقيني ما أقدر أقدملك شيء.. و يقولوا: إذا دخل الفقر من الباب هرب الحب من الشباك.

لم يعد لي بعدها سوى صباح أبث له حزني وشكواي.. عرض عليّ صباح أن يرتدي لي عباءة نسائية ويجلس إلى جواري في السيارة ونذهب معا إلى شاطئ البحر، ثم أقول له ما كنت أقوله لريم، وإذا لزم الأمر فلا مانع لديه في منحي حضنا أو قبلة، لكن على شرط ألا تكون في الفم. كانت محاولة من صباح لإضحاكي، فما كان مني إلا أن قلت له إن هذا ممكن فقط (عندكم في ديرتكم).. طالتني منه صفعة، واعترتنا نوبة من الضحك.

ربما أنا اليوم Home sick؛ لأنني في حاجة إلى حضن تميل عليّ به ريم الناعمة الطرية الأنثوية الدافئة، وربما لأنني في حاجة إلى تبادل نكتة مع صباح أو حتى صفعة منه، أحتاج إلى شيء لا أعرف ماهيته، لكنه شيء

Twitter: @abdullah_1395

قديم.. شيء يضفي الدفء على هذا المكتب الذي يتدفق إليه من فتحات المكيف هذا البرد القارص.. شيء يضحكني وسط هذا الصمت الذي لا يخرقه سوى دخول بعض الزملاء وخروجهم على استحياء حتى لا يرهقوني، واتصالات خالد المتقطعة التي ينتزعها من وقت أعمال شركته انتزاعاً.. وتلك الرسالة التي تركها الجميع بجواري ظنا منهم أنها مجرد أوراق عادية ربما أود التسلية بمطالعتها، دون أن يدركوا أنها تسلية قاتلة.. سيرة الولد الأسود وأمه الطلقاقة وأبيه الذي اختفى من مشهد حياتهما.. السيرة التي أقرأ في جوهرها سيرتي أنا وأمي.. جاسر الذي تنكر لزوجته الطلقاقة وولده الأسود، وضاري الذي تنكر لأمي المسكينة ولولدها المعاق الذي ظل يراه معاقا على رغم أنه خرج للحياة معافى سليماً.. لا أدري مَن أبي منهما؟ جاسر أم ضاري؟!.. ليس ثم فرق كبير.. ليس ثم فرق أبداً.. كلهم ذاك الخائن الهارب المتنصل، كلهم ذاك المضطهِد العنصري الأناني.. كلهم ذاك القاسي.. وكلنا أبناء الطلقاقات اللائي في لحظة تنطلق كلمة الطلاق في وجه إحداهن كالبصقة نتنة الرائحة، كأنها مِلك يمين أحدهم لا زوجته أم أبنائه.

الفتى المسكين أخطأ الرجل الذي يقدم إليه شكواه فليس المشكو إليه بأفضل ولا أعز ولا أكرم ولا أقوى ولا أسعد من الشاكي.

أنا Home sick ربما لأني منذ كثير لم أهاتف أمي.. إذن أهاتفها.. لكنني لست مؤهلا بعد.. إنني أرهق كثيرا حتى أخدعها وأوهمها بأني بخير.. وأنا لست بخير.. لم أتعاف بعد، وهي دون أدنى شك ستعرف.. قلب أمي لا يخطئ أبداً، خاصة إذا كان الأمر يخصني.. لا أنسى أبدا عندما كنت في لندن، وصدمتني سيارة ثم نقلت إلى المستشفى.. كانت أمي برفقة أخي حبيب الذي عاد وزوجته مؤخرا إلى الوطن، في أحد المطاعم، سقطت الأطباق من يد النادل على الأرض أمامها بينما كان يقدمها.. ضربت أمي بيدها على صدرها وقالت: (سامي).. ما الذي أخفيه عن امرأة تراني بعين الغيب؟!.. كل ما سأجنيه أني سأزيد متاعبها.. فلأنتظرْ حتى أتعافى ثم

Twitter: @abdullah_1395

أهاتفها.

لكنني أحتاج إلى حضن أمي، الآن أكثر من أي وقت آخر.. الآن بعدما توقف الخوف.. الخوف من سياط أبي، وبطش أخي، من الجوع والغربة والضياع.. أحتاج إلى يديها تضمدان وجعي الذي يشتعل في صدري كلما خلوت إلى نفسي.. أحتاج إلى حضنها الكبير يفتح لي بواباته لأدخله مخلفا ورائي العالم.. أحتاج إلى نظرة عينها التي طالما رعت شقائي وبكائي.. لا أحد في العالم الآن يمكنه أن يقدم لي ما أنا بحاجة إليه، ولم يكن ذلك ممكنا لأحد في الماضي سوى أمي.. حتى مدام (ليا) الحنون، بكل ما أوتيت من ظرف ولطف، وبكل ما قدمت لي من احتضان.. حتى (صوفيا)، السويسرية التي قاسمتني غربتي نفسها في شوارع لندن.. ولم تكن أوفر حظا مني في إجادتها الإنجليزية.. كنا نتعلم معا في معهد اللغات في لندن.. اقتربت مني على سبيل الفضول.. كنت العربي الوحيد بين مجموعتي.. بشرتي القمحية كانت شيئا جديدا بالنسبة إليها، تماما مثلما كان شعرها الأشقر شيئا جديدا بالنسبة إليّ.. نجحت أخيرا على يدي (صوفيا) في إقامة علاقة جديدة تربط بين بلدينا، خارج أعمال استيراد الساعات والشيكولاتة السويسرية.. كنت في حاجة إلى خرق تلك الحواجز بيني وبين هؤلاء الآخرين الذين لا يتحدثون لغتي، ولا يحملون لون بشرتي، ولا ينتمون إلى أعراقي.

الأمر بالنسبة إلى (صوفيا) كان أبسط من ذلك، مجرد تعاط مع آخر جديد مختلف اعتادته فيما بعد، ثم قررت أن يكون وحده في حياتها دون الآخرين. المراهقة السويسرية التي لم تكن تجاوزت بعد الثامنة عشرة، فقست بيضة طائر الحب في مهجتها، خرج منها كائن صغير مغمض العينين.. كان التماع نظرة عينيها على طاولة العشاء في ضوء المطعم الخافت، يطلب مني بنشوى متوقدة أن أمد يدي لأتعاطى طائرها الصغير، أقبله ثم أعيده إلى صدرها.. ولقد مددت يدي.. حملت طائر صوفيا الصغير الجميل.. لثمته، ولثمتها بشفتيّ، ثم أعدته إلى صدرها، ثم توجهنا معا إلى حلبة الرقص، ضممت صدري إلى صدرها حتى أوفر مزيدا من الدفء لطائرنا الجميل..

Twitter: @abdullah_1395

كلما خمش صدرها تقول: (ضمني أكثر).. كنت أضمها، وأضمها، وأضمها، حتى يهدأ الطائر وينام.

..(أذكر أنني من جنوني كنت أستضيف بنات الجيران بغرفتي وأعمارهن من 16 إلى 20 سنة.. تحت تأثير ما لا أعرفه وإن كان يتكرر مع كل واحدة منهن. كنت أشعر أن أي واحدة منهن لن تمانع في ترك نفسها لكل ما قد أفعله بها.. لكن شيئا داخلي - أيضا لا أعرفه - كان يمنعني أن أشرع في خلع عباءة إحداهن.. لا أعرف لماذا رغبتي كانت تتوقف عند حد معين، فما أكاد أشعر بارتياح لنجاحي في استدراجها لغرفتي، حتى أزهد فيما وراء ذلك.. ما زلت مصرا أنه كان جنونا أو ربما يكون لديك يا سيدي تفسير آخر، فمثلك يقرأ كثيرا ويعلم أكثر مما يعلم مثلي..)

لا شك أنه جنون، والجنون لا يحتاج إلى تفسير.. الجنون يظل جنوناً.. ويظل الإنسان في حاجة إلى لحظات يعيش فيها جنونه، تماما مثلما يحتاج إلى عقله.. ثَمّ أشياء لا تقبل التفسير، ولا فائدة تعود على الإنسان من وراء تفسيرها، ثَمّ أشياء نفعلها فقط لأننا نريد أن نفعلها.. أشياء كالتي كانت تحدث بين الفتى الأسمر وجاراته وأشياء كالتي كانت تحدث بيني أنا وصوفيا.

صوفيا الصغيرة الجميلة ابنة العائلة السويسرية الغنية، لم تكن تنوي أن توقف شيئا أو تضع حدودا لشيء.. أضمها في حلبة الرقص أو في غرفتي لا يهم.. صوفيا كانت تبحث عن ذلك الوهج الشرقي القوي.. عن فراش نرتمي عليه وقتما نشاء، لا مسند مقعد في المطعم، أو في الـ(هايد بارك).

مدام (ليا) أيضا لم تكن تمانع أن أعود بصوفيا أو بأي فتاة إلى غرفتي.. رغم أنه أمر اعتيادي، لكن مدام (ليا) كانت تتمنى أن أفعله أنا

Twitter: @abdullah_1395

تحديدا دون كل من أقاموا عندهم من قبلي من الشبان، كانت شهادتها الرئيسية التي صرحت بها لمسؤولي المؤسسة الذين كانوا يراقبونني عن بعد، أني العربي الوحيد الذي لم يصطحب معه فتاة إلى غرفته قط.. كان هذا سيسعد مدام (ليا) كثيرا لو أني فعلته.. مدام (ليا) كانت ترغب في أن ينكسر هذا الصمت الذي أدخل إلى غرفتي وأخرج منها متأبطا إياه.. تسهر حتى ساعات متأخرة كي تذكرني بأن أترك ملابسي لغسلها وكيها ضمن مشروع احتضانها إياي، أو تستيقظ مبكرا جدا لتقدم لي طعام الإفطار الذي كنت غالبا ما أغادر قبل أن أتناوله.. يوم عطلتي الأسبوعية كانت تراقب أصدقائي الشبان الذين يأتون لاصطحابي، ثم يعيدونني آخر الليل.. كانت سعادتها غامرة عندما مرت صوفيا مرة لاصطحابي.. بالغت مدام (ليا) في التقرب إليها.. لم تدعها تمضي حتى أخذت منها وعدا بأن تعود برفقتي لتناول العشاء معها ومعي بالطبع.. لكن صوفيا لم تعد معي في ذلك المساء.. ولم تعد معي في أي مساء.. ولم يكن ممكنا أن تعود برفقتي أي فتاة أو امرأة في أي مساء؛ لأن هذا سيبعدني كثيرا عما قدمت إلى تلك البلاد من أجله؛ ولأنه لم يكن ثَمّ مكان لهذا الصفاء، ولتلك النشوة، في حياة فتى خائف مهدد، وجائع أحياناً، بل كثيراً، والأهم من ذلك كله، أنه سيُغضب قلب صابرة، وصابرة قد تراني وأنا أضاجع إحداهن هنا في لندن، في منام لها هناك في جدة.

علمتني أمي أن الرجل الذي يحمل القرآن في صدره لا ينبغي له أبدا أن يزني، تماما مثلما علمت السيدة الطقاقة ولدها حسام أن الذي يمضي عمره ضحية للظلم، ينبغي ألا يظلم، ربما لذلك لم يخلع الفتى عباءة إحدى الفتيات اللاتي كن يتسللن إلى غرفته أثناء غياب أمه، فضلا عن أن مضاجعة صوفيا كانت تستتبع بقوة القانون الإنجليزي أن أتزوجها.. وقد تعلمت أيضا أن الجائع لا ينبغي له أن يتزوج أو حتى يفكر في الزواج.

كان علي ألا أستسلم لعناق صوفيا المراهقة ابنة الأثرياء التي لم تمتد بل لم تفكر يد في العالم في أن تمتد لصفعها أو حتى ترتفع في وجهها..

Twitter: @abdullah_1395

حسام أيضا كان عليه ألا يستسلم لطيش المراهقات اللاتي أتين إلى حجرته، ولم يدر في مخيلة إحداهن مشهد واحد لها ولطفلها منه يتحرك في أحشائها وهي لا تدري أين تذهب؟ أو ماذا تفعل؟.. ولأن حسام كان يرى ذلك الطفل يصرخ في وجهه خارجا من رحم إحداهن، فقد كان في اللحظة الأخيرة دائماً يعي ويعرف ماذا يفعل.

صوفيا التي ولدت في هواء الحرية وتحت سمائها لم يكن في مقدوري أن أنسى بين أحضانها الجحيم الذي قدمت منه تواً، ولا أزال مهددا في أي لحظة بالعودة إليه.. من أجل هذا كله لم تعد صوفيا برفقتي في ذلك المساء كما وعدت مدام (ليا)، وعندما سألتني عنها مدام (ليا) قلت لها إنني تركتها في الظهيرة وتوجهت إلى أحد أصدقائي، ثم انقطع اتصالنا.. كنت أدرك أن المؤسسة تراقب تصرفاتي وتسأل عني.. كانت تنفرج أساريرهم عندما تقول لهم مدام (ليا) إنها لم تر قط شابا عربيا مثلي، وكان هذا يكفيني، إلى جانب شهادة رؤسائي في المؤسسة؛ ليوافقوا على المشاركة في دفع مصروفات جامعتي كوني أحد استثماراتهم البشرية التي يرغبون أن يكون استثمارا ناجحا بكل المقاييس.

أما صوفيا الصغيرة التي كان لها مذاق قطعة من شيكولاتة الحليب السويسرية البيضاء فكان يكفيني منها قبلة صغيرة على طاولة المطعم، أو حضن طويل ألثم في غيبوبته شفتيها على مقعد إحدى الحدائق عندما يكون أحدنا Home sick.

كان يمر وقت طويل يحتار خلاله أصدقائي قبل أن يدركوا أنني معتكر المزاج لأنني Home sick بينما صوفيا كانت تشعر بذلك الشيء داخلي.. تراقبه في عيني، تتحسسه ثم تسمعه في نبض قلبي، يلفحها في أنفاسي التي كانت صوفيا تحرص على أن تبقى قريبة منها.. كانت تقدم له من شفتيها وأحضانها وذراعيها اللذين اعتادا اعتصاري بينهما ما يقضي عليه قبل ولادته داخلي.. كانت صوفيا بعد كل عناق طويل على أثر حالتي تلك تجلس أمامي باسمة تتأمل وجهي وتقول وراحتاها تلتفان

Twitter: @abdullah_1395

حول راحتي:

- Nice

.. أبتسم لوجهها الطفولي الرائق:

- Nice

ثم أنتبه إلى ساعة يدي وأقول بدهشة:

- Nighn o'clock

كانت تضربني بقوة من فرط غيظها وأنا أشدها من يديها لنعود أدراجنا، حتى لا تشعر مدام (ليا) بأنني أتأخر فوق العادة، فيثير ذلك ريبتها، أو يغير من نظرتها إليّ التي حرصت أشهرا على أن أجعلها مثالية.. كنت ألتقي صوفيا Home sick لكنني بعد جلسة معالجة قصيرة معها، أجد كل شيء داخلي أصبح Nice.

بيد أن هؤلاء كلهم: مدام ليا.. صوفيا.. خالد.. نعيمة.. الأصدقاء.. لم يكن بإمكان أحدهم أن يضع يده على موطن الألم.. على جوهره.. وحتى إن وضعوا أيديهم جميعا على ألمي فلا فائدة.. الوحيدة التي بيدها أن تبرئه إلى الأبد هي أمي.. الوحيدة التي بيدها انتزاع نظرة الرضا عن العالم من عيني هي أمي.. الوحيدة التي تعرف شكوى طفلها الذي احتار فيه الجميع.. هي أمي.

صابرة التي احتملت مكواة أبي عمرا على جسدها، ولم تفكر أبدا في وضعها على يدي، حتى في لحظات يأسها وكمدها، صابرة التي عز عليها أن تضع على يدَيْ صغيرها المكواة التي وضعتها أم حسام على يديه، حتى أن ألمها لا يتوقف إلى اليوم، أقرؤه في رسالته التي انتخب أشد ذكرياته إيلاما وحشدها بين سطورها، بيد أن هذا لا يعني أني تفوقت على الفتى الحريق، فيدا أمي الرحيمتان ربما استحرمتا كَيّ صغيرها، لكنهما لم يكن في مقدورهما دفع مكواة أبي عن جسدها.

Twitter: @abdullah_1395

- سلامتك يا أمي.. إيش اللي يألمك؟

- أبد يا قلبي بس ظهري يوجعني من الجلوس على المكوى من العصر عشان أكوي ملابس أبوكم وملابسكم.

- طيب خليني أساعدك في الكوي يا أمي.. أوعدك ما أحرق الملابس.

- لا يا قلبي.. إنت روح حل واجباتك وأنا راح أسوي واجبي وأخلص كوي.. يللا يا قلبي نشوف من اللي يخلص الأول أنا ولا إنت.

- أوعدك يا أمي إني راح أسوي المستحيل عشان أريحك وأعوضك عن كل هذه السنين.

- الله لا يحرمني منك يا سامي.. أنا متأكدة إن ربي راح يوفقك وما راح يخذلني فيك.

أمي لم تكن أبدا في حاجة إلى انتزاع الضحك من حلقي بالنكات، والملاطفات، أو ضمي إلى صدرها.. صابرة كان يكفيها أن تقدم لي طبق حساء دافئ، وتمسح على رأسي ثم تجلس تراقبني وأنا ألتهمه أمامها بعد عودتي من مباريات الكرة في الشارع، ثم تحثني أن آخذ حماما وأستبدل بملابسي المتسخة من سقوطي على أرض الملعب ملابس أخرى نظيفة قبل أن يعود أبي ويراني على حالي الرثة تلك.. صابرة كان يكفيها أن تصحبني معها إلى الحرم لصلاة التراويح وأنا أتمتم بجوارها جيئة وذهابا بما أحمل في صدري من القرآن وهي تراجعه معي.. صابرة لم تكن في حاجة إلى أن تبذل كثيرا أو حتى قليلا من الجهد لتسعدني.. صابرة وجودها في هذه الدنيا وحده يسعدني، بينما كان دائماً يشقيني ويشقيها أن آلاف الأيدي كانت تنتزعني منها، وتنتزعها مني.

أنا المشوه الذي كانت تنتظره صابرة لتتقرب به إلى ربها.. قضاء الله الذي رضيت به فرضي الله عنها ولطف بها، وخرجت من رحمها صحيحا معافى، وتحققت نبوءة الهندية المؤمنة، وأصبحت أبرّ الناس بها.. نعم أنا أبر الناس بأمي، وأمي أبر الناس بي.. أنا قلبها الذي لا يتوقف عن السفر

Twitter: @abdullah_1395

والترحال، وهي وجودي الذي أعيش خارجه وبئن بعيدا عني.. أنا حلمها الذي دفعت عمرها ثمنا ليتحقق، وهي سعادتي التي لا أتمكن من عناقها إلا بين السفر والسفر.. أنا عزاؤها في غدر العالم بقلبها الطيب، وهي رضائي بقضاء الله كله، مادامت أمي بخير..

إذن أنا اليوم Home sick لأنني هنا بمفردي، وأمي ليست معي.. في كل مرة يغشى عليّ فيها يكون وجهها أول ما أفيق عليه من العالم، والآن لي عشرة أيام أرقد طريح فراشي في غرفة العناية الفائقة.. يا قلب صابرة.. هل حقا لا تشعر بي، أم أن الله لطف بك، وغَمّى عليك أمري؟! لكنني مريض، ومحتاج إلى دعائها، محتاج إلى (يس) تقرؤها على رأسي.. محتاج إلى رقيتها وأنا ممدد بين يديها الشافيتين.. يديها اللتين امتصتا من جسدي آلام الماضي حتى سكنَت جسدَها وأعيتها.. يديها اللتين سقطتا إلى جوارها آخر مرة بعدما قررت مغادرة جدة إلى الشرقية.. كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان.. ليلة القدر التي ملأت ببهجتها ورجائها ودعائها بيوت خلق الله جميعا، إلا بيتنا البائس البكيّ، الذي سكنته تلك الليلة أحزان صابرة وطفلها الذي وقف يلملم القليل القليل الذي بقي له من أشيائه وأشلائه ليرحل عن مسرح الجريمة القديمة التي لم يملّ أبوه ولا أخوه ارتكابها في حقه منذ ولادته، بل منذ كان مضغة في رحم أمه.. كان نحيب أمي التي فقدت الحراك فوق سجادة صلاتها في الغرفة المجاورة يعبر الردهة إليّ متحشرجا عميقا ملتاعا مبللا بدموعها:

- يا واصل المنقطعين..
- يا جابر المنكسرين..
- يا مجيب دعاء المضطرين..

كان صوت إمام الحرم المكي يعلو بدعاء ختام القرآن الكريم قادما من التلفاز، وأمي المسكينة تؤمّن خلفه:

Twitter: @abdullah_1395

- آمين..
- آمي...
- آ .....

البكاء ليلتها مزق كل شيء في أمي، حتى صوتها المتقطع، وبين يديها آيات من سورة (القصص) لجأت إليها أملاً في رحمة الله ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ صدق الله العظيم.

كانت تؤمّن بدموعها خلف إمام الحرم رافعة يديها المتوسلتين إلى مولاها الكريم، الذي لم يردّ لها دعوة أبدا، أن يفرج عنها وعن صغيرها، وأن يجبرُ كَسْر قلبيهما، وأن يكفي صغيرها شر طريقه، وشر الناس، وأن يرده إليها كما رد يوسف إلى يعقوب. فلما حان موعد الرحيل، ودخلت عليها غرفتها، وسقطت عيناي المُخْضَلّتان بدموعهما على وجهها الملائكي الباكي، لم أصدق أنني حقا سأبرح دارنا، ربما إلى غير رجعة.. لم أصدق أنني قد لا أرى وجهها ثانية، أنني سأحرم دفء حضنها وضمة ذراعيها الرحيمين وقبلتها على جبيني كلما ألقيت رأسي على كتفها.. وقفت أمامها تائها شاردا أملأ عيني منها.. تطلعَتْ فيّ بعينيها الذابلتين، وخرج صوتها من حنجرتها ضعيفا محتَضَرا:

- خلاص يا قلبي.. ماشي؟
- ماشي يا أمي.. سامحيني يا قلبي..
- انت اللي سامحني يا سامي.. ما في يدي شيء أسويه عشان أحميك..
- أوعدني.. إنك تحافظ على صلاتك..
- أوعدك يا أمي..
- أوعدني.. إنك تنتبه على نفسك..

Twitter: @abdullah_1395

- أوعدك يا أمي..
- يا ريتني مت قبل هذا اليوم...

ارتميت على قدميها أقبلهما، وارتمت عليّ تقبل رأسي وجبيني ووجهي يغتسل في نهر دموعها، وأنفاسها الحارة تغذي عنقي بدفئها قبل أن أبرحها إلى صقيع العالم.. انفجر بركانان قديمان كانا يسكنان كلينا، بركانان كانا يؤذنان بالثورة وتخرج أدخنتهما كلما رسم عقال أبي خطا جديدا على ظهري، أو انهالت ذراع فارس بلطمة على وجهي.. بركانان كانا يستجمعان حممهما من خلايا جسدينا.. كلما ناديت وبكيت وصرخت واستجديت أن يخرجوني من الزنزانة التي أعدها أبي لحبسي في منزلنا، وترك لي فيها بطانية أنام على نصفها وألتحف نصفها الآخر، وبجوارها وعاءٌ مملوءٌ بالرمل لقضاء الحاجة وكأنني كلبُ حراسةٍ في قصر أحد الأثرياء.. لم يكن في يد صابرة شيء تقدمه للمضغة التي حملتها أشهرا في رحمها إلا الدعاء لي بالفرج.

في يوم وداعي الأخير لأمي.. بكينا البكاء كله حتى نضبت أعيننا، وبقينا شاخصي البصر كالذي ينتظر نطق الحكم بالإعدام عليه.. نعم.. لقد أنجز السيد جاسر وولده الأثير مهمتهما بنجاح لا يحسدان عليه، يوم تسببا في إعدام أمي وإعدامي بخروجي من بيت أبي حاملا حقيبة ملابسي التي أدركت صابرة أنه لن يمكنها غسلها أو كيها أو ترتيبها في خزانة ملابسي بعد اليوم، فخرت مغشيا عليها، بينما أخواتي البنات يدفعنني للمغادرة سريعا حتى لا يفوتني موعد الطائرة.

لم يشفع لأمي خدمتها لوالدي عمرا حتى يرحم قلبها الذي تفطر بكاء ويعيد إليها صغيرها الذي تعلقت به روحها..

- داخله على الله ثم عليك يا جاسر.. لا تترك ولدنا يضيع..
- هذا ما هو ولدي.. أنا ما خلفت ولد عاق يسب أبوه..

Twitter: @abdullah_1395

- والله سامي ما غلط عليك..
- خليه يتربى ويتلطش في الشوارع.. بعدها يرجع مثل الكلب..
- صدقني لو خرج ما حيرجع.. هذا ولدي وأعرفه.. أتوسل عليك بالله ترجعه..
- إذا كان ناوي يروح وما يرجع.. فالله لا يرده.. خليه يعفن من الجوع..

الرجل الذي اعتاد أخذ كل شيء من زوجته لم يكن لديه أدنى نية لإعطائها شيئاً، حتى ولو كان هذا الشيء تركها تعيش مع ابنها في أمان.. الرجل الذي أفقده الخمر صوابه ذات مساء فما كان منه إلا أن اقتادها إلى الحمام.. ودفع بها إلى البانيو، ووقف يبول عليها.. كان ينبغي أن يحاكم بتهمة تدنيس القرآن الذي تحمله أمي في قلبها، أمي التي ظلت تدلله إلى حد أنها لم تكلفه حتى الاغتسال من عذرته كالأطفال، فتكفيه عناء مد يديه وتنظيف مؤخرته وتفعل ذلك نيابة عنه بسعادة ونفس راضية، فما كان منه إلا أن تبول عليها.. ربما كان الرجل فاقدا وعيه لكنه عبرّ بـ(لا وَعْيِه) عن حقيقة وعيه المستبد، حد النازية، بأمي المستضعفة التي فرض عليها يوما في إحدى نوبات الجبروت التي كانت تعتريه، أن تجلس مثلها مثل أي أريكة في الغرفة، تشاهده يضاجع زوجته الجديدة حتى ينتهي، ثم ترافقه إلى الحمام لتساعده على الاغتسال من عرق مضاجعة المرأة الأخرى. لم يشفع لأمي شيء، حتى تمزُّق شرايين قدميها وهي تحمل صحن الأرز بعد انتهاء ضيوفه شبه اليوميين من تناول طعامهم.. عاد الضيوف إلى بيوتهم بنكهة طعامها المفضل لديهم، وانطلقتُ أنا وإخوتي بها إلى المستشفى لربط أوردة باطن قدمها المتهتكة؛ إثر ضغطها بقدمها على كأس زجاجية كانت على الأرض.. ساعة أو أكثر والأطباء يحاولون السيطرة على بركة من دماء أمي.. الجراحة التي أجريت من دون تخدير لحمل أمي في أختي الصغرى شهدت نوبات صراخ هستيرية للمسكينة التي كان يحكم عليها

Twitter: @abdullah_1395

أربعة ممرضين أيديهم وهي تتلوى من الألم، وبعدما انتهى الجراحون من الخياطة اكتشفوا نزف الدم من جديد.. ثمة شريان لم يلتئم.. اضطر الجراحون إلى فك خيط الجراحة وإعادتها من جديد.. ساعة أخرى من صراخ أمي.. كانت قلوبنا تتفطر حولها حزنا وإشفاقا عليها وأعيننا تتسرب دموعها بينما السيد جاسر منشغل بتكسير المكان غضبا مما وصفه بالتسيب والاستهتار.. حتى تعبيره عن اهتمامه بها كان شاذا غريباً، وكأنه يعاقبهم لأنهم أهملوا شيئا يخصه، وليس لأن امرأة بالداخل يفترض أنها زوجته أم أبنائه تتألم.. حتى دماء أمي لم تشفع لصغيرها عند جاسر فيرِقّ قلبه مرة في العمر ويستعيد صغيره الذي ربما يضيع في الحياة..

اليوم أنا Home sick؛ لأن الطائرة التي أقلعت بي، لم تعد بي ثانية.. رغم عودتي لأمي بكل ما كانت تحلم به وتتمناه لي، غير أن الذي عاد شخص آخر، وليس صغير صابرة.. صغير صابرة لا يزال ممددا على أرض زنزانته القديمة يبكي دون أن يتمكن أحد من إخراجه، ودون ـ حتى ـ أن أتمكن أنا.. صغير صابرة قتله الخوف، والجوع في برد لندن القارس، والمهانة في ميناء جدة، وصراع الكبار هنا في الرياض على بلاط (صاحبة الجلالة).. صغير صابرة قتله ـ من قبل ـ رغبة أبيه في أن تنجب له صابرة رجالا بشوارب وعضلات مفتولة وقلوب حجرية لا يتذوقون للطفولة نكهة، ولا يحملون في رؤوسهم حلما للشباب.. قتلته رغبة أخيه المصارع العنيف في أن يصنع منه ظلا باهتا له، أو روبوتا يحركه في أي اتجاه يشاؤه.. صغير صابرة يستيقظ الآن داخلي.. يبكي.. الآن أسمعه ينادي أحدا من الجالسين في الخارج أن يفتح له باب زنزانته.. في الماضي كان الجميع يخشون أن يدري عنهم السيد جاسر، فيجدون أنفسهم في زنازين مجاورة، والآن بعدما مات السيد جاسر، اكتشفوا أنه لم يخبرهم عن المكان الذي أخفى فيه مفتاح زنزانة (سامي).. سامي لا يزال حبيسا داخلي.. لا يزال يصرخ على الآخرين في الخارج.. لا يزال خائفا من الظلام في محبسه.. لا يزال جائعا مهما أكل.. عطشان مهما شرب.. كئيبا مهما ضحك.. مسافرا مهما عاد.. مظلوما

Twitter: @abdullah_1395

مهما أنصفته الحياة.. محروما مهما خاض في النعم.

اليوم أنا Home sick؛ لأن شيئا ما يولد داخلي، أو ربما يموت.. شيء ما لم أعرفه أبداً، ولم أعرف ماذا يفعل بي.. لكنه موجود.. يضحكني أحياناً، وأحيانا يملؤني رغبة في البكاء.. يحرك فيّ الأمل أحياناً، وأحيانا يحشوني يأسا جافا مسموما لا حيلة للحياة أمامه.. يأساً من ذلك النوع الذي صرعني قبل عشرة أيام، وأخذوني من يديه جثة هامدة لم تدب فيها الروح ثانية إلا في غرفة العناية الفائقة.

تعليمات الأطباء بممارسة أعمال مخففة تزيد الأمر سوءاً.. يجب أن أعمل وأعمل وأعمل.. يجب ألا أترك ثانية للفراغ.. للهواجس.. للمشاهد القديمة النشطة التي تتحدى دورة الزمن.. لبكاء سامي الصغير الذي يتحين لحظات الصمت ليفلت من براثن الضوضاء التي أملأ بها حياتي حتى لا أسمعه.. يجب أن أعمل حتى لا أسقط ثانية.. الأطباء لا يعرفون شيئاً.. الأطباء يظنون أني رجل مرهق، ولا يتصورون أنني رجل خائف، لا يطمئن إلا عندما يعمل.. العمل وحده يضمن له البقاء.. يضمن له الاستقلال والأمان والنسيان.. إرهاق العمل يهزم آلام الروح المعذبة التي أسير بها عبئا ثقيلا على جسدي.. أقاوم جنوحها إلى الموت بالضحك المتواصل.. أقاوم رغبتها في العزلة بمؤانسة الآخرين، لكن الآخرين الآن يبتعدون عني؛ ظنا منهم أن هذا في صالحي.. حتى خالد يتصل على استحياء، استجابة لنصيحة الأطباء.. سحقا للنصائح.. سحقا للأطباء.. لا أحد يفهم شيئاً.. أنا هنا بمفردي وهذا أخطر شيء.. يجب أن يكون معي أحد يشاركني تلك الغرفة المظلمة، التي لم أبرحها منذ كنت حبيسها في الطفولة.. يجب أن يبقى أحد بجواري حتى لا تخرج علي الأشباح.. صرخت مراراً.. ناديت الجميع أن يدخل أحد.. أن يفتح الباب أحد.. السيد جاسر كان يتوعد الجميع في الماضي، والآن، الأطباء يصرون على بقائي في محبسي.. إنني هنا بمفردي.. لا أحد ولا شيء حولي.. فقط تلك الرسالة التي بدأت أخشى أن أمد إليها يدي وأقرأ المزيد من سطورها؛ حتى لا تتهيج الأشباح التي حرصت أعواما

Twitter: @abdullah_1395

على أن تظل نائمة في بركتها في أدغال ذاكرتي.. الرسالة التي تشبهني.. الفتى الأسمر مجهول الهوية الذي لا يميزني عنه سوى بطاقة الأحوال التي أحملها ولا تعبر عني.. أمه الطقاقة التي كانت أوفر حظا في الحياة من أمي.. رغباته التي فتح الباب لثيرانها، بينما الحملان التي تسكنني لم تبرح باب حظيرتها منذ ودعت طفولتي مبكرا في شوارع مدينتي وحملتني الطائرة، ولم أعد من غربتي.. ينبغي أن يدخل عليّ الآن أحد غرفتي.. ينبغي أن يوقف أحد تلك المشاهد التي بدأت تهاجمني.. هل ثم أحد بالخارج؟ هل ثم إنسان يسمعني؟.. إنني أختنق هنا.. إنني بمفردي.. أرجوكم.. افتحوا الباب.. مدام (ليا).. أوليفر.. أنا هنا.. خالد.. نعيمة.. صوفيا.. صباح.. أمي.. أمي.. أمي.. أنا هنا.. أنا سامي.. أنا هنا.. أرجوكم.. افتحوا الباب.. أنا هنا.. أنا Home sick.

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

الواد والعمّ

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

..(هذا المولود المتطرف في حبه وفي عدائه، قد يكون الأحلى في الحب، والأكثر ميلا إلى الجمال.. يحب الحب وإن فتش عنه بعينين مفتوحتين، وبواقعية ليست مرغوبة كثيرا في عالم الحب).

أسطر توقفت أمامها طويلا في رسالة الفتى.. توأمي الأسمر الذي ربما يكون أخي من أبي.. مكاشفة مخيفة، يتسرع من لا يتأنى في فهمها بإضافة إصبع اتهام جديد، إلى ملايين الأصابع التي تشير إلى الفتيان ذوي الأصول الإفريقية.. على اعتبار أنهم المسؤولون عن انتشار المثلية في وسط الأطفال والصبيان والفتيان والشبان وربما الشيبان.

على رغم انتشار العلاقة الشاذة بين الجميع دون استثناء للون أو عرق، يبقى الفتيان ذوو الأصول الإفريقية أكثر شهرة دون غيرهم، ربما لأنهم دائماً يقومون بدور الطرف الموجَب (الذكور) في العلاقة الشاذة، بينما تتناوب الأعراق والألوان الأخرى الأدوار فيما بينهم؛ ربما لقوة أولئك الفتيان البدنية التي كانت ترشحهم دائماً للعب دور الطرف المهيمن على العلاقة، وربما لأن أصولهم الإفريقية الراقصة العاشقة للموسيقى والجنس تركت شيفرتها الوراثية في دماء هؤلاء الفتيان العاشقين للرقص ومتعة الجسد، ولأن الشوارع والأحياء دائماً كانت متنفس هؤلاء الفتيان الفقراء المطاردين فإن لحظات خلوتهم بالصبيان المليحين ذوي البشرة الناعمة الأنثوية تكون

Twitter: @abdullah_1395

ظرفا مواتيا لهياج الكروموسومات النشطة التي تدفع أحدهم إلى تطويع الصبي للمهمة العاجلة، تلبية لرغبة الكروموسوم الشاذ الهائج..

من المؤكد أنه كانت هناك بداية.. تجربة.. استنسخت منها آلاف التجارب، مع تنويعات في السيناريو. وعلى رغم أنه لا دليل على صحة ذلك كله إلا أن أصابع الاتهام لا تزال مصوبة في اتجاه الفتيان ذوي الأصول الإفريقية.

هل كان حسام متطرفا في حبه - كما ذكر - إلى درجة إتيان الذكور؟..

لكنه ذكر أنه لم يمارس اللواط قط.. فهل كان يقصد الفتيات اللائي كن يتسللن إلى غرفته أثناء غياب أمه؟. لكنه قال: إن إحداهن لم تخلع في غرفته عباءتها.. ترى كان الفتى يتحدث عن واقع افتراضي حرص على ألا يصبح حقيقة عارية أمامه يمارس اللواط أو الجنس معها؟.. ربما.. لكن الأكيد أن هؤلاء الفتيان كما قال حسام (الأحلى في الحب).. حكايات المثليين التي كانت لها أعشاش في آذاننا تبيت فيها طوال الليل ثم تصحو في الصباح، فتطير لجلب المزيد من الحكايات، كلها تؤكد أن الفتيان الأفارقة هم (الأحلى في الحب). لم نكن ندري في تلك السن عن حكايات حب غير تلك التي يلعب أدوار البطولة فيها الصبيان والفتيان المثليون.. مشاهد الغزل الذي يدغدغ به الفتى البالغ مشاعر وشفتي ومؤخرة الصغير الذي يختاره زوجا له، يخلو إليه طويلا يقدم له الهدايا.. يطعمه بيديه، ويختاران معا الثياب نفسها التي يرتديانها والقلوب التي يعلقانها على نحريهما، في إشهار للعلاقة يفهمه الجميع فيبتعدون عن أحدهما حتى لا يغار الطرف الآخر على محبوبه من الذكور الآخرين.

علاقات الفتيان ذوي البشرة الإفريقية كانت مشهورة بأنها الأطول عمرا والأكثر استقرارا، وطرفاها أفضل المثليين سعادة وتناغما وتفاهماً، أما الفتيان السمر أنفسهم فإن عطاءهم وإخلاصهم لصغارهم لا حدود له، حتى أن ولايتهم عليهم تتعدى كثيرا ولاية آبائهم. نعم ربما كان هؤلاء

Twitter: @abdullah_1395

الفتيان أكثر الفتيان تطرفا في الحب، إلى درجة أنهم أحبوا فتيانا مثلهم، لكن أحدا لا يحمل دليلا على أن أول فتى مارس اللواط مع أحد الصبيان كان فتى أسود.

أما رسالة المسكين الذي تتقاذفني أمواج مثل تلك التي تتقاذفه، فليست دليلا على شيء بقدر ما هي فوضى اللاشعور لمخلوق قهره العالم، ومارس عليه الإقصاء على رغم رغبته في الانتماء إليه، فأصبح الحب والكراهية لديه شيئا واحدا لا يميز تحت تأثيرهما إن كان يحب شخصا ما أم يضمر له العداء والكراهية.. تماما مثلما يكره أباه، وفي الوقت نفسه تمنى أن يشهد معه حفل ختام عامه الدراسي الأخير في المدرسة المتوسطة مثله مثل بقية زملائه الذين أتوا برفقة آبائهم، ومثلما رد كل الفتيات اللائي استدرجهن إلى غرفته بمهارة ثعلب عجوز دون أن يفض لإحداهن بكارة أو حتى يأتيها في الدبر.. تماما مثلما ضيع اثني عشر عاماً في سبيل الحصول على (هوية) أصبحت عذابه وأبغض شيء إليه، لكن شيئا داخله يدفعه لحبها؛ ربما لأنه نطفة أحد حامليها، وليس في وسع نطفة أحدنا أن تكرهه.

على الرغم من وجود احتمالات كثيرة ألا يكون هؤلاء الفتيان ذوو الأصول الإفريقية أرباب صناعة المثلية في وطننا، لكن الجميع هنا لا يصدقون إلا احتمالا واحداً، ولا ترى أعينهم إلا شيئا واحداً، ولا تشير أصابعهم إلا إلى متهم واحد هو حسام وأبناء لونه..

لا أعرف لماذا يصر الجميع هنا على التنصل من خطيئة يمارسونها هم ومن يرمونهم بها معاً، وكأن أناسا غيرهم هم الذين يكشفون عن مؤخراتهم ويتيحونها لهؤلاء الفتيان وغيرهم.. لا أعرف لماذا يصر هؤلاء على أن هذه الحقيقة المعقدة لا تحتمل إلا وجها واحداً.. ربما يفعلون ذلك لأنهم مرضى.. وربما لأنهم عنصريون!!

Twitter: @abdullah_1395

حليب وشاهي مع الليمون
وكوكب الشرق بتغني

والواد والعود والقانون
و(علي) ما يفترق عني

Twitter: @abdullah_1395

كسرات (مثليي مدينة صباح القديمة) كانت تملأ تابلو سيارة صباح التي سقط بها من سفح الجبل، وأصبح بعدها مقعداً، منذ ذلك اليوم وصباح يتطير من سماعها.. كان يغلب على ظنه أن غناء المثليين لعنة حلت عليه وعلى أسرته، لذا تخلص بعدها من تلك الأشرطة، التي كان يتغنى فيها اللوطيون المتيمون بمعشوقيهم من الصبيان الحسان.

- الله يلعنهم.. نكبوني..
- مين إللي نكبوك يا صباح؟
- البزرنجية [1] اللي يقولوا كسرات للعيال..
- ليش.. سووا لك شيء وأنا ما أدري؟
- يا حيوان احترم نفسك.. أقصد يوم الحادث كنت حاط شريط لواحد منهم وطربان معاه.
- إيش كان بيقول يا صباح في الكسرة؟
- يا أخي إنت ليش ملقوف.. كان بيقول كلام ما راح تفهمه..
- ليش.. قالوا لك جاي بالباخرة من الفلبين..
- والله لو كنت جاي من الفلبين يا سامي كان مشي سوقك 100% عندنا في ديرتنا..

---

(1) البزرنجية: (جمع بزرنجي) شخص يُشتهر برغبته في وطء الأطفال والصبيان.

Twitter: @abdullah_1395

- الله يلعنك يا شيخ.. سمعني الكسرة خلينا ندخل جو..

- يقولك يا سيدي:

أصحابنا بعضهم ديكور
فتان في الهرج والمظهر
والبعض الآخر يشعشع نور
وقت الشدايد لنا يظهر

- الله الله يا صباح.. أفهم من كذا إني أشعشع نور الحين..

- لا والله.. إنت فتان في الهرج والمظهر..

- وانت تبالغ بوصفك يا صباح عنهم.

- ترى العيشة في لندن ما خلتك تشوف الهم اللي كنا عايشين فيه، ما تتذكر كم مرة كلمتك عن أيام ديرتي القديمة قبل ما ننتقل على جدة، وقتها كنت طفل صغير، وكنت أحب أتفرج على لعبة (المزمار)، كل إللي يجي في بالي إنه لعب، وطرب، ونقرزان[1]، ولف عود مثل ما يقولوا، شي مثل اللي شفناه يوم ما حضرنا زواج ابن عمتي.. بس الحقيقة اللي عرفتها عن المزمار وبلاويه مع الأيام وكثرة حضوري لجلساته، خلتني أكرهه وأكره حضوره، تصدق إنه في كل جلسة تقريباً تصير مضاربه وتشوف الدم للركب، وتلقى الشباب صاروا مثل الأشباح والدم مغرق ثيابهم، كل هذا عشان واحد قال موال وأتغزل في (واد) يكون عمه حاضر المزمار، أو طالع فيه بنظره غزل.. بعدها هربت من هذا العالم، بس الشي اللي ما قدرت أتوقف عنه وقتها سماع أغانيهم اللي كانت تذكرني بالطفولة.

كنا نجلس ونسوي حلقة كبيرة داخل أرض فاضية أو في ملعب الحارة، وفي وسطها يشعلوا نار ويلعبوا مزمار حولها، كل (واد) تقريباً له (عم) وقتها ما كنت أعرف إلا بداية الكلمات اللي يغنوها لأنها سهلة ومفهومة

---

(1) نقرزان: زير صغير مجوف ومغطى بالجلد يضرب عليه بعصي خشبية.

Twitter: @abdullah_1395

مثل:

حبا حبا.. باللي جا

يا مرحبا.. باللي جا

وبعدها نبدأ نسمع كلام ما كنا نفهمه وقتها، لكننا نردده وراهم واحنا مبسوطين:

يا واد يا أمرد

جاك الذيب

يا واد يا نونو

يا حنون

كانت أيام سودة يا سامي.. وربنا نجانا منها..

هجر صباح مدينته القديمة وهجر فيها اسمه، فسمى نفسه (صالح).. لكنني استأذنته في أن أظل أناديه (صباح)؛ لأنني أحببت الاسم وصاحبه معاً؛ ولأن صباح ليس في حاجة إلى أن يغير اسمه أمامي، فلست من مدينة صباح حتى يترك الاسم في مخيلتي الإيحاء الذي يخشاه صباح.. ولع بعض شباب مدينة صباح القديمة بمغازلة الصبيان جعل من الخطورة بمكان أن يحمل فتى فيها هذا الاسم، أيضا فنحن كنا في جدة، وقد ترك صباح مدينته بخيرها وشرها، كما أنني أنا سامي.. سامي الذي يعرف عنه صباح أكثر مما يعرف سامي عن نفسه.. قلت هذا كله لصباح؛ لذا وافق أخيرا على مناداتي إياه باسمه القديم ولكن (بيني وبينه فقط).

كسرات أهل مدينة صباح وأغانيهم، كانت تختصر الطريق إلى وعي الجميع.. تتحدث بصراحة عن الممنوع الذي يخشى الجميع خوض تفاصيله.. عن المعلوم الذي يحرص الجميع على أن يبقى مجهولاً؛ ربما لأن للكثيرين علاقة به من قريب أو بعيد، من قديم أو حديث، وربما لخوفهم أن يوصموا به إذا أبدوا اهتمامهم بشأنه، وربما لأنه مخجل جداً، وربما لأنه مخيف، والاقتراب منه. ولو بمجرد الحديث عنه. أمر غير مأمون ولا محمود العاقبة،

Twitter: @abdullah_1395

تماما مثل الذي حدث لـ(علي البطة).. (علي البطة) ضحية الحديث عن المنوع.. المنوع الذي كان يختتم صبيان وفتيان شارعنا أحاديث الليلة بالحديث عنه، بعد انتهاء مباريات الكرة التي لم تكن تتوقف دورياتها في حواري الحي، فينتحون جانبا قصيا مظلماً، رصيفا من أرصفة الشوارع الجانبية، يتبادلون عليه الحكايات المنوعة، ويستعرضون أسماء أبطالها، وربما تأخذهم نشوة الحديث، فيخوضون في سرد تفاصيل المنوع الذي غالبا ما يكون أحدهم ضحيته في مثل تلك الأمسيات التي يتعمد فيها بعض البالغين منهم إثارة الصبيان الصغار، لعل أحدهم يرغب في أن يخوض التجربة.. هكذا كان الشراك يلتف حول على أقدام الصغار الجالسين دون أن يشعروا، وبدلا من أن يعود أحدهم إلى بيته، يتوجه بصحبة أحد الفتيان البالغين إلى أحد أسطح المنازل، أو غرفة سائق في أحد المباني، أو مكان مهجور.. ساحات لعب الكرة في النهار، غالبا ما تكون في المساء، خاصة الزوايا القصية المعتمة منها، أماكن مفضلة لممارسة المنوع، إثر أحاديث الليل التي يثير بها البالغون الخبثاء وهج الصغار، ويشعلون جذوة أحدهم، فيكون في آخر الليل ضحية للبالغ الفائر.

ما حدث لعلي البطة كان سيناريو مشابها لهذا، عندما لم ينتبه إلى محاولات (موسى) الفتى البالغ الذي يحمل لون بشرة حسام للانفراد به، ومصاحبته بعيدا عن أعين جماعة الصبيان والبالغين الآخرين.. كان الصبي لا يزال للطفولة أثر قريب على نظرته للحياة والأشياء والآخرين، وكان لا يزال للطفولة أثرها أيضا على شفتيه وبشرته الناعمة، بينما موسى كان ينتبه إلى كل شيء، ولاسيما ذلك الشيء الذي ينتصب لديه كلما احتك بالصبيان الصغار أو حتى تطلع في وجوههم.. وكان يعي كل شيء تماماً.. كان يعلم أن عليا لا يزال صغيراً، وأن الصغار تستهويهم الأحاديث عن الألعاب.. عرض موسى لعبته على (علي) الذي كان قبل ممارسته اللعب مع موسى يدعى علي المسعود، وبعد ممارستها أصبح يدعى علي البطة.. المهم أن اللعبة بدأت، وبدأ موسى البالغ الذي احترف قنص الصغار، يعلّم

Twitter: @abdullah_1395

صغيره الأثير قواعد اللعبة.. فاللعبة غالبا ما تكون في الظلام، ويلزم لممارستها شخصان فقط لا ثالث لهما.. اختار موسى سطح منزلهم مسرحا لممارسة اللعبة التي يقوم أحدهما فيها بدور البطة الأنثى التي يطاردها ذكر البط، وتبدأ المطاردة بين الحظائر، لكن الشرط الأهم في اللعبة أن البطة بعد مطاردة ـ حرص موسى على أن تكون قصيرة ـ تستسلم أخيرا وتقع من التعب، لكن ينبغي أن تراعي البطة أن تقع على بطنها.

- ليش ما نلعب أكثر، ونترك موضوع البطة هذا لبعدين؟
- ومن قالك إننا ما بنلعب، بالعكس اللعب راح يحلو أكثر.

هكذا كسب موسى الجولة، بنى على الانتصارات الذكورية الباسلة في بيوتنا، انتصاره الخاص على ذكر مثله، نجح في أن يصنع منه أنثى مطيعة؛ لأنه ـ في اللعبة ـ يقوم بدور الذكر، ولأنه ـ في الواقع ـ هو الأقوى.. هو الذي يستطيع حماية بطته وسط الحي من الذكور الأخرى.. علي البطة (الواد) وهو العم.. (الواد والعم).. اصطلاح شهير يعرفه الجميع في الحواري هنا، وربما خارجها أيضا.. ثنائية لا تخلو منها أحياؤنا، بل إن من لم يدخلوا عالمها يعدون استثناء بين الأغلبية الساحقة التي ارتضت قانون (الواد والعم) القانون الذي لا يرحم من يقع تحت طائلته، ولا يعرف تفاصيله الدقيقة إلا مرتادو أمسياته وأسطحه وأماكنه المهجورة.. (الواد والعم) شريعة صبيان الشوارع التي يتمتع أحد أطرافها بالقوة والسطوة، خاصة أصحاب الأصول الإفريقية، ويوفر لزوجه الحماية والرعاية، بل يلتزم بإطعامه مما يطعم، وكسوته مما يكتسي، واصطحابه معه في سيارته إلى حيث يذهب، فيتنزهان معاً، ليس لأن (الواد) غير ميسور الحال أو أن أسرته غير قادرة على تلبية احتياجاته؛ بل لكي يشعر الاثنان بأنهما روح واحدة وأنهما يتشاركان معا كل شيء، ويقضي أحدهما برفقة الآخر أمتع أوقاته.. بينما يلتزم الطرف الآخر (الواد) السمع والطاعة لعمه، خاصة

Twitter: @abdullah_1395

عندما يطلبه لقضاء وطره، وإن كان ذلك لا يعد مشكلة أبداً، فالعم يعرف دائماً الوقت المناسب، ويهيئ الظرف الملائم، ويلون الجو الجاذب، ويملك ألف طريقة وطريق للدخول إلى (الواد) الذي يحرص دائماً على إرضاء عمه وإمتاعه وملء عينيه؛ حتى لا ينصرف عنه إلى آخر، ينتزع منه الحماية والرعاية والمتعة التي يحظى بها دون صبيان الحي.

بعض حالات الزواج الذكوري غير المعلن في شوارعنا تبدأ بخطأ، أو سذاجة الطرف الأضعف، ثم يصعب بعدها أن يتنصل الطرف الأضعف من صاحبه، خاصة إذا كان لدى الطرف القوي بعض اللقطات الفوتوغرافية التي يحرص الصبي على ألا يطلع عليها أقرانه.. هذا ما حدث لعلي، الصبي الذي صار بطة. وثَم حالات أخرى تبدأ بالمنطق.. منطق القهر، الذي يحكم علاقات الشوارع والبيوت أيضاً.. قهر الآباء لأبنائهم وزوجاتهم.. قهر الذكور لأخواتهم الفتيات.. قهر الإخوة الكبار للصغار.. قهر فتيان الشارع وصبيانه البالغين للصبيان والأطفال، وقهر الفتيان السمر الأقوياء أصحاب الأصول الإفريقية للجميع.. وربما كان هؤلاء الأخيرون أيضا ضحايا قهر المجتمع الذي حرص دائماً على ألا تختلط أعراقه بأعراقهم، وألا يحمل أحد أفراد المجتمع الأصليين لون أحدهم.. حتى أن الموافقة لأحدهم بحمل دفتر عائلة سعودي لا تعدو أن تكون إجراء يحرص الجميع على أن يبقى شكليا مع إيقاف النفاذ، فيندر أن توافق إحدى العائلات على تزويج أحد هؤلاء من فتياتها، مهما كان كفئاً لها، لكن هؤلاء يعرفون جيدا كيف ينتصرون لذواتهم المقهورة.. للون بشرتهم المنبوذ.. لأعراقهم التي يرفض الجميع امتزاجها بأعراقهم، وإن كانوا عدموا السبيل إلى إنائهم بالمصاهرة الحلال، فإنهم لا يعدمون السبيل إلى أطفالهم وصبيانهم وشبانهم ورجالهم من الذين فشلوا في التخلص من وشائج الصلة القديمة.. صلة (الواد والعم)، فأصبحت غريزة مكتسبة لديهم.

Twitter: @abdullah_1395

يا ريتني أستاذ في (جعفر)
ولا مدير في (العزيزية)

لو غلط الحلو في الدفتر
أعطيه ميتين في مِيّة

Twitter: @abdullah_1395

ثَمّ أنماط أخرى لعلاقة (الواد والعم) تحمل الجوهر نفسه، الهيمنة، فمدارسنا أحد المسارح الشهيرة التي يقدم على خشباتها عروض (الواد والعم) سواء بين الصبيان وزملائهم، أو بين الصبيان ومدرسيهم، خاصة مدرسي التربية البدنية، الذين قد يمتلك أحدهم (حرملك) من الصبيان الذين اعتادوا الاستجابة لأساتذتهم في كل ما يأمرونهم به.. فأثناء بعض التدريبات يحرص مدرس التربية البدنية الذي يجنح إلى معاشرة طلابه على إبقاء مؤخرة الولد قريبة منه، حتى أن أحدهم كان يدرب صبي الرابعة عشرة على مصارعة الذراعين من الخلف.. الحكاية بدأت بكذبة كذبها المدرس مسعود على طالبه مهند الصغير عندما قال له إن ذراعيه الرقيقين الناعمين الضعيفين حدّ الأنوثة يصلحان لهذه اللعبة.. الصبي كان جميلاً، يشبه كثيرا أمه الشامية، حتى أن كثيرا من الأساتذة كانوا يتقربون إليه، بيد أن مسعود الأفاق كانت لديه الفرصة سانحة أكثر للاختلاء بصغيره المفضل.. مهند الصغير أبدى دهشته من ضخامة عضلات ذراع معلمه وعروقها النافرة؛ فأشفق معلمه لحاله وعرض عليه أن يصارعه بذراعه اليسرى في حين يستخدم مهند ذراعه اليمنى.. كان هذا يتطلب أن يجلس مهند على فخذَي أستاذه حتى يتمكن من مصارعة ذراع أستاذه اليسرى بذراعه هو اليمنى.. مهند اعتاد هذا التدريب الخاص الذي كان يتم في

Twitter: @abdullah_1395

مكتب مسعود المغلق، وفي فناء المدرسة بعيدا عن صفوف الطلبة وغرف المدرسين والمدير، كما اعتاد حركات معلمه التي كانت مريبة للصغير في بادئ الأمر.. لكن مسعود كان مقنعا وله طرائقه التي يفوّت بها تلك الأمور على صغاره.. وبعد تأكد مسعود أن الصبي اعتاد الحركات التي بدأ عنفها يزداد من أستاذه، اقترح عليه أن يخرج به مبكرا ويوصله بسيارته.. فرح الصغير بخروجه مبكرا مع أستاذه.. في الطريق ذهبا للتدريب على جهاز الأستاذ الخاص في شقته العزوبية.. كان مسعود قد اشترى مايوها من قطعة واحدة، أصغر من مقاس مهند، ليرتديه الصغير أثناء التدريب كاللاعبين الكبار، واشترى لنفسه مايوهاً.. وبدأت اللعبة.. كانت استجابة مهند رائعة على الجهاز حتى أن أستاذه طار به من السعادة، وحضنه وقبله كثيراً، ثم دعاه ليدخلا الحمام معا ليغتسلا بعد ساعة من اللعب..

بعد أكثر من حصة تدريبية في منزل مسعود، كان شعور مهند بآلام مؤخرته يقل تدريجيا حتى اعتاد الأمر؛ خاصة أنه بين يدي أستاذه الخبير.

بعد رحيل مسعود من المدرسة إثر شكاوى كثيرة من زملائه الحاقدين عليه، بدأ مهند يدعو زملاء فصله إلى ممارسة لعبة مصارعة الذراعين في حمامات المدرسة، حتى أن أحد الصبيان أخبرنا في جلسة المساء على رصيف شارعنا، أن طلاب الفصل جميعهم وكثيراً من طلاب الفصول المجاورة مارسوا المصارعة مع مهند، بل إن بعضا من أساتذة المدرسة كانوا يذهبون إلى منزل أسرة مهند للتدريس له في المنزل، بينما الآخرون الذين حرصوا على انضمام مهند إلى جماعات الرياضيات والكشافة والبوليس السري والمسرح والفنون.. كلهم حرصوا على استفادة الجماعات من مواهب مهند الخاصة والخارقة، كلهم شهدوا لمهند بأنه أصبح بارعا في مصارعة الذراعين، رغم نعومة ذراعيه وضعفهما، حتى أن مدرس التربية الرياضية الجديد رشح مهند لبطولة المدارس، بيد أن المشكلة التي واجهت مهند، أن اللعبة لم تكن مدرجة بعد في خطة التربية الرياضية بالإدارة التعليمية!!.

ثَمّ ما يلفت الانتباه هنا.. مسعود مدرس التربية البدنية كان سعوديا

Twitter: @abdullah_1395

خالصاً.. مدرس التربية البدنية الجديد أيضا كان سعوديا خالصاً.. أيضا بقية معلمي المدرسة سواء الذين واتتهم الفرصة ودرّسوا للصغير، أو أولئك الذين فاتتهم الفرصة، لكنهم تمكنوا من اختبار قدرات الفتى في دورات المياه بعد انصراف الطلاب.. كذلك التلاميذ زملاء الصبي الذهبي، الذين كانت فرصتهم للاختلاء به وممارسة اللعب معه متاحة أكثر.. هؤلاء كلهم كانوا يتمتعون بلون بشرتنا الوطنية الرائقة الجميلة، ولم يعرف عن أحدهم أن عِرقا إفريقيا لوث شجرة عائلته.. فضلا عن أن حسام ورفاق لونه من المهمشين لم يكن أحدهم ليجرؤ على العبور أمام بوابة مدرسة مهند الخاصة، ناهيك عن أن يكون أحد طلابها.

- يا أخي نفسي أدرس في هذه المدارس بدل المدارس الحكومية اللي كأنها سجون أبو غريب..
- أقول أقلب وجهك.. خلهم يعطوك الجنسية أول بعدين فكر في المدارس الخاصة؟
- يا أخي أنا بأقول نفسي.. يعني جالس أحلم..
- اللي مثلنا مالهم حق يحلموا.. وإذا حلموا راح تكون أحلامهم كوابيس.. يعني سيارات الترحيل.

Twitter: @abdullah_1395

البسّ الأسود خطف كتكوت
فرخ الدجاجة اتعشى به

والناس تلعب البلوت
والكاس داير على اصحابه

Twitter: @abdullah_1395

الخطأ إذن قاد علي البطة إلى سطح منزل موسى، بينما المنطق قاد رفيق طفولتي (حسن) الذي أصبح لاعب كرة قدم شهير إلى سيارة (شرف).. الفتى البالغ القوي الذي كان يوفر الحماية لرفيق طفولتي الذي كان ضعيف البنية، وليس له من الإخوان من يحسب اللوطيون من الفتيان لهم ألف حساب فيبتعدون عن إخوانهم، فضلا عن النفوذ الذي أصبح يتمتع به الموهوب الصغير، الذي كانت تركله الأقدام مع الكرة، وتدهسه تحتها لمهارته التي كانت تُعجز الجميع، ولم يكن ينقصه سوى الحماية التي تكفل له اللعب بحرية، دون أن يتعمد أحد إيذاءه.. شرف أيضا يحمل لون بشرة موسى.. السيناريو المتكرر بين الفتيان ذوي الأصول الإفريقية الأقوياء، والصبيان الناعمين الأنثويين ذوي البشرة الوطنية، ربما كان سببا جعل الجميع هنا يجزمون بمسؤولية الفتيان السود عن تفريخ جيل من الصبيان المؤنثين الذين لا يجدون غضاضة في وطء الآخر لهم، لكن أحدا لم يشر إلى حسام وآخرين يحملون لون بشرته نفسه وأيضا أقوياء، لكنهم لم يأتوا صبيا في دبره أبداً، بل كانوا دائماً ينفرون من ذلك.. الجميع تعامَوا أيضا عن مدانين كثر من ذوي البشرة الوطنية لم يتوقف لهاثهم أبدا طوال مطارداتهم اليومية للصغار الشاردين عن أسرهم.. (عدالة) المجتمع ارتضت أن يظل هؤلاء المجرمون خارج دائرة الاتهام، على اعتبار أن (السود) أقوياء، وبلا

Twitter: @abdullah_1395

محام يدافع ويدفع عنهم، وأنهم سيتحملون معاقبة الجميع إياهم على ما ارتكبوه، وأيضا ما ارتكبه غيرهم من جرائم.

شرف كان معجبا بلعب حسن.. كان يعلن للجميع أنه مشجعه الأول وراعي أهدافه التي يحرزها في مرمى الخصوم، بينما كنا جميعا نتبادل بنظراتنا حقيقة أن شرف معجب أكثر بأهدافه هو التي يحرزها في الصغير الناعم الجميل.

كان من المنطق بالنسبة إلى اللاعب الصغير أن يوافق على ألا يدفع شرف عنه عندما يحاول الاقتراب منه أكثر من اللازم، أو الاحتكاك به من دبره؛ فهذا يعني أنه في أقرب مباراة سترفع عنه وصاية شرف وحمايته، والويل له حينها، ليس فقط من أقدام اللاعبين، وإنما من ألسنتهم أيضاً.

كان من المنطق أن يبحث الضعيف عن قوي يخضع لحمايته.. أن يبحث المقهور عن مصدر للقوة يوقف قبضة القهر قبل أن تنهال عليه بلكمة أخرى.. أما في المنازل فلا شيء يوقف القهر.. علاقات البيوت في جوهرها أشبه بعلاقات الواد والعم، وإن كانت علاقات (الواد والعم) تبقى أفضل حالا من علاقات منازلنا؛ ففي حين تقوم علاقة (الواد والعم) على المنفعة المتبادلة بين طرفين، فإن علاقات منازلنا تقوم على منفعة وأنانية واستبداد طرف، وانصياع الطرف الآخر الضعيف، بل انسحاقه دون أي ميزة يحصل عليها.. ولعل هذا يدفع بكثير من الفتيان إلى الخروج من فلك تلك العلاقة الظالمة، واللجوء إلى أصدقاء الحي من الصبيان والبالغين، الذين تكون علاقاتهم ـ الممنوعة ـ أكثر عدالة، وأقل خطراً.. فـ(العم) دائماً يحافظ على إبقاء (الواد) سعيدا رائق المزاج.. يحرص دائماً على ألا تتعرض بشرته الرقيقة الرائعة لأي كدمة أو لطمة أو صفعة قد تشوه هذا الجمال المفضل لديه، في حين أن أخاه الكبير أو أباه قد يعمدان إلى تشويه وجهه بأيديهما أو بآلة حادة على أثر إحدى نوبات العنف الأسري الذي نتنفسه في بيوتنا.

القهر في بيتنا تجسد في أقسى وأعنف وأفحش صورة له، حتى أنه طال الناس في الطرقات.. لم يكن أحد يجرؤ على معاداتي أو حتى صداقتي.. لا

Twitter: @abdullah_1395

أنسى يوم ركلت صخرة بالخطأ بقدمي بدلا من الكرة وسقطت على الأرض من فرط الألم، وأسرع الفتيان وحملوني إلى البيت في سيارة أحدهم، ولم يكن على علاقة طيبة بفارس، فلما فتح فارس باب البيت ووجدني أخرج من سيارة الشاب وأتكئ عليه حتى أتمكن من الوقوف، ما كان منه إلا أن صفعني على وجهي، وأخذ يكيل لي السباب أمام الشباب لأنني ركبت معه سيارته.. كان الشاب قد انصرف من فرط ما ناله من الإحراج، لكن فارس الذي دخل البيت وأسرع بارتداء جلبابه، خرج ليطارد الشاب ويتعارك معه لأنه حملني في سيارته إلى البيت.. كان الشاب أحد أولئك السمر، أصحاب الأصول الإفريقية، وكانت علاقة فارس بهؤلاء سيئة أيما سوء.. لا أدري، ربما لأنه لا يقبل أن يربط أخاه بأحدهم ولو حتى علاقة إغاثة لا تسمح بشيء، بيد أنه ربما خشي أن يفسرها الآخرون كما يحلو لهم، وربما أيضا لأنه كان يكره الأقوياء ويحاول دائماً أن يثبت لهم وللجميع أنه الأقوى، مهما كلفه ذلك من وقاحة وغباء.

- ما أبغى أشوف أخويا معاك مرة ثانية.. فاهم؟
- أخوك طاح في الملعب.. ووصلناه لبيتكم.. هذا كل شيء..
- إن شاء الله لو طاح ومات في الملعب إنت تحديداً لا تتدخل..
- خلاص أبشر.. لكن ماله داعي كل هذا الزعل والشر..
- صحيح..

لا تشتري العبد إلا والعصا معه..

إن العبيد أنجاس مناكيد.

وبدأت مشاجرة فيما بينهما نتيجة للجملة العنصرية التي أطلقها فارس.

وجود رسالة حسام الفتى الأسمر على مكتبي اليوم انتصار، وإن جاء متأخراً، على ذلك التاريخ الذي لم يكن لي فيه حرية اختيار قائمة خلطائي،

Twitter: @abdullah_1395

ثمة مواصفات كثيرة وضعها أبي وأخي العنيف يأتي على رأسها ألا يكون من أخالطه أحد هؤلاء، أخي كان يخشى أن ينجح أحد هؤلاء في أن يستدرجني إلى أحد الأسطح أو يصطحبني معه في سيارته.. أخي الذي اصطحب كل الذين اصطحبهم من الفتيان والفتيات بأعصاب باردة، كان يخشى أن تهتز صورة الطاغية التي رسمها لنفسه أمام الجميع على يدَي أخيه (الأخرق) الصغير. وجود رسالة حسام الشاكية الباكية اليائسة على مكتبي اليوم، تؤكد أن هؤلاء الفتيان لم يكونوا خطراً، بقدر ما كان أخي ذو البشرة الوطينة كارثة حلت عليّ وعلى كل من عرفهم وكل من عرفهن.. ولعل دموع ناهد الفتاة العربية التي أحبته إلى درجة أن سلمته نفسها، بيمين حنوث منه، أنه سيتزوجها، هي خير شاهد على نذالة فارس الذي دفع بها إلى الحمل منه، وذلك عندما عرضت عليه أن (يَستُرُ عليها) ويتزوجها، فما كان منه إلا أن وصفها بأنها عاهرة، ثم تخلى عنها.

كان لا بد لي من أن أجد حلا لنفسي، حلا يعصمني من أن أصبح بطة أخي الكبير.. وإن كان الآخرون يمارسون اللعبة مع الصغار في الشارع بغرض المتعة، لكن أخي لم يكن يعرف عن قواعد اللعبة معي إلا أن ذكر البط ما عليه طوال النهار والليل إلا أن يضرب أنثاه، ويمزق وجهها بمنقاره الضخم الجارح.. صبيان الشارع مع مرور وقت على الممارسة يشعرون ببعض المتعة أثناء قضاء البالغين أوطارهم منهم، أما أنا فلم أكن أحظى من أخي الكبير حتى بكلمة طيبة.. لم يكن يقرع أذني منه سوى السباب التي ما أشبهها بطبول الحرب التي تنذر بقرب نشوب معركة يمارس خلالها على جسدي كل صنوف الضرب القاتل، لكنني لم أمت.. البالغون في الشارع يوفرون الحماية للصبيان الذين يمارسون اللواط معهم، أما أنا فلم يكن ثَم خطر يخشى علي منه أكثر من أخي المميت.

حقيقة.. كنت أتجرع مهانة علاقتي به.. هذا الخضوع لكل ما يوقعه بي من إهانة.. كنت أكره نفسي، وأكرهه، وأشعر أنني لا أفترق كثيرا عن أي مثليّ صغير يأتيه البالغون وقتما يشاؤون.. اللواط في جوهره خضوع،

Twitter: @abdullah_1395

وخضوعي التام لأخي، ووقوفي أمامه صامتا هكذا في كل مرة يقرر أن ينكل بي فيها، كان شيئا أحط وأحقر من الخضوع.. من اللواط نفسه.. كنت أبدو للجميع صبيا محظوظا لأن لي أخا قوياً، ذِكرُ اسمه وحده كفيل بأن يوفر لي حماية لا يتمتع بها صبي في سني، لكنني في الحقيقة كنت أحسد حتى الصبيان الشواذ؛ إذ يتمتعون بميزات لم أكن لأحلم بها.. لم أشعر أبدا أنني أفضل من أحدهم في شيء؛ فهل تسقط رجولة أحدنا باللواط فقط؟.. كلا.. ثَمّ أكثر من طريقة تسقط بها رجولة الفرد وذكورته، منها أن يعتاد أحدهم تلقي الصفعة ثم يقف منتظرا التي تليها، حتى يقرر الآخر التوقف عن صفعه وإهانته.

- حرام عليك يا فارس.. أنا إنسان أفهم الكلام.. ليش الضرب؟
- مين قال إني أشوفك إنسان أصلاً..؟
- ربي خلقني إنسان وكرمني..
- وأنا ما راح أكرمك ولا راح أرحمك..

القهر.. تلك المعركة التي خاضها الجميع بشراسة داخل البيوت وخارجها، لم تنته بانتصار أحد.. الجميع خاسرون.. المجتمع يمارس القهر على بعض عناصره؛ فترد بقهر مضاد يقدم للمجتمع في النهاية أجيالا تحتفي رؤوسها بثقافة اللواط، أكثر مما تحتفي بمقررات الكتب الدراسية.. البالغون يستدرجون الصبيان بالقهر، والصبيان يصبحون فيما بعد لوطيين كبارا، يتربع أحدهم في مجلس أعرق الأسر، ويطلب فتاتها للزواج، فيرحبون، دون أن يعرفوا شيئا عن تاريخ الرجل، بيد أن فتاتهم تعرف فيما بعد أنها تزوجت لوطيا يحاول أن يصنع منها لوطية مثله، وكثيرا ما ينجح هؤلاء.

ليس اللواط الذي يفعل بنا ذلك وإنما القهر.. القهر الذي نمارسه بوعي وبغير وعي.. رغبة أعراق في أن تمتاز على أعراق.. رغبة أحدهم في أن

Twitter: @abdullah_1395

يفرض سلطته على الآخرين.. ثُم خضوع الآخرين الذي يصنع منهم إناث بط ترقد على بطونها.. كنت أعي هذا تماماً.. أدرك أن الخاضعين في كل زمان ومكان، ليسوا سوى لوطيين منبطحين على بطونهم، وإن لم يقارفوا اللواط.

لكنني كنت أكره اللواط واللوطيين.. أكره الخضوع والخاضعين.. كنت أكره أخي الذي كان يجبرني أن أبقى منبطحا؛ حتى أتفادى صفعاته وضرباته ولكماته الطائشة.. كنت أقسو على نفسي في صالة تدريب كمال الأجسام في نادي الحي.. كان زملائي ينهون التدريب ويخرجون منهكين من رفع أكوام الحديد على أكتافهم وظهورهم، ويتركونني أصارع (البار) وأراقب عضلات صدري وذراعي.. أنتظر أن تكبر وتقوى في أسرع وقت ممكن.. كنت أختار البارات القديمة الصدئة لتعينني على امتلاك يدين خشنتين قاسيتين كيدي أخي اللتين تمزقان وجهي. كنت أريد أن تصبح لي عضلات كتلك التي تلتف حول ذراع حسام وكتفيه القويتين اللتين ظلتا شامختين على الرغم من انحنائهما أمامي يوم قدم لي رسالته في المقهى.. ما المانع أن أكون قويا ومسالما مثل هذا الفتى؟ لماذا لم يفهم أبي وأخي أبدا أن ثم فارقا كبيرا بين الإنسان والثور.. وأن الإنسان في وسعه أن يكون قويا وخلوقا معاً، وأن الإنسان ليس في حاجة إلى إيذاء الآخرين حتى يتجنب أذاهم؟.. وها هو ذا توأمي الأسود القوي الذي مارس عليه العالم ألوان القهر، يقف مستسلما أمام عدوان الآخرين، ناسيا أن له ذراعين مفتولين يمكنه بهما إيقاف من يشاء وانتزاع ما في حافظة نقوده لدفع إيجار السكن المتراكم وإنقاذ أمه من التشرد، أو توفير أجرة انتقالاته للبحث عن أبيه الهارب؛ ليثبت للعالم أنه ليس نَبتا شيطانياً.. لكن الفتى الأسود المتهم هو وكل من يحملون لون بشرته بالعنف والسرقة والاغتصاب واللواط والاتجار بالمخدرات، لم يفعل شيئا من ذلك كله، وآثَرَ عليه الشكوى والبكاء على أمل أن يربت على كتفه أحد أو يشفق لحاله أحد.. لماذا فعل أخي ذلك بالفتى الأسمر الذي ساعدني؟.. لماذا كان يحظر عليّ أن أصافح أو حتى ألقي السلام على أحدهم؟ لماذا كان

Twitter: @abdullah_1395

يفترض فيهم السوء دائماً على رغم أنه كان أسوأ مَن عرفت في حياتي؟ علامات استفهام كثيرة لم يكن ليلتفت إليها أخي المصارع القدير؛ لذا كان من الضرورة أن أمتلك ناصية اللغة الوحيدة التي يفهمها أخي.. أن أكون شخصا محترما يصغي لحديثه.. ومحترم عند أخي وأبي لم تكن تعني سوى أن أكون قوياً.

كنت أعلم أنني لن أنجح في اختصار الزمن بيني وبينه بالسرعة التي أرجوها.. كنت أدرك أن تكوينه الذي خلقه الله عليه، والذي ورثه عن أبي لا تفيد ولا تجدي معه أثقال الحديد المتوافرة بالنادي مجتمعة.. لم أكن أحلم بأن ألقنه علقة ذات يوم ترد لي اعتبار سنين طوال لقنني خلالها عشرات، بل مئات العلقات الساخنة اللاهبة حدّ انبجاس الدماء من جسدي.. كل ما كنت أحلم به أن أمد يدي مرة واحدة.. أن أصفعه صفعة واحدة.. ربما تكون الأولى التي تلقاها في حياته، وأن يظل يتذكر أنها كانت مني، أنا سامي الضعيف الذي لم يفكر يوما في أنه إنسان مثله يشعر ويتألم ويبكي.

- كف.. ضربتني كف..
- ومن اليوم ورايح كل كف راح أرده لك بكف..
- راح أقتلك..
- يا أنا يا إنت يا فارس..

لم يصدق أخي الكبير الهصور أن يدا في العالم امتدت إلى وجهه.. جن حنونه كالثور الهائج عندما ردَدْت عليه صفعته في ردهة البيت، عندما جربت للمرة الأولى نتائج تمارين رفع الأثقال وبناء العضلات على جسدي.. حطم الطاولة فوقي، لكنني قمت رغم الألم العنيف والدماء، ووجهت لكمة إلى فكه اقتلعت شفتيه.. ظل يضربني وأضربه.. يضربني وأضربه.. كنت متألما جداً.. لا يهم.. المهم أنني كنت سعيداً.. كنت رجلاً.. للمرة الأولى كنت رجلاً، لا بطة منبطحة على بطنها.. كنت واقفا على قدمي أمامه مثل

Twitter: @abdullah_1395

كابوس بشع لا يصدقه.. ضربني كثيرا كثيراً، وضربته قليلاً.. كنت فرحا نازفا متألما سعيداً.

هكذا صار ما بيني وبين أخي ألما فقط، لا انبطاحاً.. مشاجرات طويلة يختلق أسبابها، لكن الحال تغير كثيراً؛ فلم تعد مشاجرات من طرف واحد يضرب ولا يتلقى رداً.. بدأ أخيرا يتحاشى لكمتي المضادة، وصفعتي المضادة، وعضات عميقة أتخلص بها من ضمته عندما يقرر خنقي بساعديه وعضديه.. انقلبت البطة أخيرا على ظهرها وتعلمت دفع الذكر الغاشم بقدميها عن جسدها.. كان بإمكاني احتمال الألم، لكنني قبلُ لم أكن أحتمل الخضوع والمهانة.

في المرة الأخيرة التي خرجت بعدها من دارنا للأبد، كان الغضب والحقد عليّ قد اعتملا في نفس أخي الكبير.. لم يعد يطيق صبرا على هذا التطاول المتكرر من بطته عليه.. كان يخشى أن يتسرب النبأ إلى البالغين في الشارع أن فارسا تلقى صفعة على وجهه من سامي؛ لذا استجمع قواه في تلك المرة.. بدا وكأنه يدخل معركة حربية لا مشاجرة مع أخيه الصغير.. كانت صفعاته ولكماته مركزة حتى كادت أن تفقدني وعيي.. وجهه في تلك المرة كان باردا شامتا في هزيمتي وقهري.. وكنت أراه في المرات السابقة متجهما غاضباً.. فهمت أنها معركة حقيقية، ربما أعود منها بطة مرة أخرى.. لم أكن لأمكنه من ذلك أبداً، ولو على جثة أحدنا.. في لمح البصر قفزت إلى المطبخ، وفي لمح البصر كنت واقفا أمامه مشهرا سكينا ضخمة في وجهه.. أقسمت له بكل الأيمان أنني سأغرسها حتى مقبضها في قلبه إن اقترب مني.. هددته.. قلت له: (قرب إن كنت رجال ابن رجال).. صراخ أمي وأخواتي حال دون سقوط جثة أحدنا على يدي أخيه.. كنت أظنه ندا شريفاً، وأن صراعنا أو مصرعنا سينتهي في أرض الميدان الذي لم يكن فيه غيرنا، بيد أنه لم يخض المعركة معي بشرف.. ترك القصة من أولها إلى آخرها، ولم يحك لأبي منها إلا.. (ابن رجال).. التي لا أعرف كيف أفلتت من شفتي في الغضب، وكان على أبي أن يثبت لي ولجميع من في البيت أنني تسرعت، وأنه.. رجال.

Twitter: @abdullah_1395

بينما كنت أحزم أمتعتي وأهم بالرحيل، أدرك أبي أن كل ما أوقعه بي من العذاب لم يجن ما كان يرجوه من ثمار، وأنني لم أزدد إلا تمردا ورفضا للخضوع.. للقهر الذي كان يحرص دائماً على أن يبقى سيفا تمتد له أعناقنا جميعاً.

ارتفع صوت أبي في الخارج مهددا ومتوعدا بأنني إن أتممت ما أنا مقدم عليه، وغادرت لمنزل حبيب في الشرقية وتركت المنزل، فإنه لن يسمح لي بدخوله أبداً، كانت ورقة أخيرة في يد السيد جاسر، ذرفت من أجلها دمعتين ارتشفتهما سجادة صلاتي آخر ما وضعته فوق ثيابي في الحقيبة، ليس من أجل شيء كنت أبقي عليه في تلك الدار، ولكن إشفاقا وحزنا على أمي التي كنت أوقن أن هذا يقتلها أكثر مما يقتلني.

- يا أمي حرام عليكِ.. اتركيني أمشي.. أنا قضيت عمري بينهم مثل العبد.
- وأمك يا قلبي.. تعيش كيف بدونك..
- أوعدك أرجعلك.. وأريحك منهم..

ثَمّ ثمن ينبغي أن يدفعه المرء من أجل الحرية.. من أجل ألا يكون بطة.. كنت أقرأ في كتب التاريخ عن أناس دفعوا حياتهم ثمنا لحرياتهم فماتوا أحراراً، وكان هذا يكفيهم، أما أنا فخسائري على فداحتها لم تصل إلى درجة الموت.. كان عندي يقين أنني سأعود يوما إلى هذا البيت.. متى؟. لا أدري.. كنت على يقين أنني سأنجح.. سأنتصر في النهاية.. كيف؟.. لا أدري.. كنت على يقين أن القدر يخبئ لي حياة أخرى غير تلك التي تجرعت مرارتها.. لكن.. أين؟.. لم أكن أدري.. لكن عودتي من أجل أن أنقذ أمي.. وليس لشيء آخر..

Twitter: @abdullah_1395

يوم السفر هلت الدمعات
وتناثرت من مدامعنا

يا الله يا منزل الآيات
إنك على خير تجمعنا

Twitter: @abdullah_1395

عندما خرجت من بوابة بيتنا إلى سيارة صباح الذي جاء ليقلني هو ويوسف إلى المطار ألقيت نظرة أخيرة على شارعنا.. جماعات الصبيان والبالغين الذين يلعبون الكرة في ساحة الحي في انتظار المساء أن يسدل ستاره عليهم ليبدؤوا ممارسة لعبهم الآخر الممنوع، الذي يحرصون أثناءه على أن تبقى أصواتهم خفيضة هامسة قدر الإمكان؛ حتى لا ينتبه أحد إليهم.. كان بينهم رفيق طفولتي اللاعب الشهير حسن الذي كان لم يزل بعد مشروع بطة صغيرة، يتنافس البالغون على كسب وده، ونيل رضائه والتقرب إليه؛ حتى يفوز أحدهم بصداقته، فيشرع في استدراجه حتى ينفرد به دون الآخرين.. علمت فيما بعد أن أحدهم (شرف) نجح، وأن الصغير الموهوب أصبح يمارس اللعب بحرية في الشارع تحت حماية (عمه) البالغ الذي اعتنى به ورباه على يديه حتى أوصله إلى ناديه الكبير.. الآن لا تخلو جريدة من صورة لرفيق طفولتي الجميل، الذي دفع ثمن حسنه غالياً، بيد أن صوره دائماً ترتبط بأخبار مشاغباته التي لا تنتهي.

عنف ليس له حدود.. عدوانية احتار الجميع في تفسيرها، إلا أنا طبعاً.. لاعبون لا حصر لهم خرجوا من تحت قدمي حسن اللتين أصبحتا قدمي شاب يافع قوي، إلى غرف العمليات، حيث يخضعون لجراحات بعضها انتهى بغياب أحدهم عن الملاعب إلى الأبد.. عنف يصل كثيرا إلى الاشتباك بالأيدي مع

Twitter: @abdullah_1395

كل من يضعه حظه السيئ في طريقه.. رفيق طفولتي المسكين قرر أخيرا أن ينقلب على ظهره، ويلملم سرواله الذي استدرج إلى (فسخه) يوماً، ويدفع عنه قهر ذكور البط الهمجية الهائجة.. لكنه أصبح يرفس الجميع.. يشتم الجميع.. يبصق على الجميع، ويشير لهم بإصبع يده (الوسطى).. رفيق طفولتي الجميل الموهوب أصبح مأساة أطالعها كل يوم في الجرائد.. أقرأ هجوم كتاب الزوايا الصحفية عليه، واتهامهم إياه بالعنف.. هلا صمت هؤلاء الأغبياء.. هلا وضعوا أحذيتهم في أفواههم وكفونا أحاديثهم الحمقاء الجاهلة.. هل يدرك أحد هؤلاء الأميين ما الذي يمكن أن يقترفه رجل صنع منه مجتمعه بطة، وفرض عليه الانبطاح؟.. فليهاجموا الشوارع أولاً.. وليهاجموا بيوت الاستبداد العالية الأسوار التي لا يدري أحد ماذا يدور في ردهاتها وسراديبها.. وليهاجموا متضخمي الأنوف الذين يشعرون أنهم فوق البشر.. وليهاجموا القهر إن وجدوه أو عرفوا له كنهاً.. فليحاصروه.. فليخرجوه من صدورهم ومن رؤوسهم التي تحمل خرائط للبشر، ثم يضعوا أعراقهم في مرتفعاتها، ويلقوا بأعراق الآخرين في قيعانها.. فليهاجموا الخضوع الذي يفرخ لنا كل يوم أجيالا تخرج من بطون أمهاتها زاحفة على بطونها، وكأن الانبطاح أصبح قدرا لا نملك له دفعاً، ولا نتقن إلا التعامي عنه وإنكاره، وهو يجري منا مجرى الدماء.

عندما ألقيت نظرة الوداع الأخير على شارعنا القديم من زجاج سيارة صباح الخلفي، كان يسكنني شعور أنني أفلتّ من قاع موحل كادت قدماي أن تعلقا فيه.. أخيرا غادرت عالم (الواد والعم) بثقافته الشاذة، وعلاقاته الممنوعة المخجلة، وأحاديثه التي تدغدغ رجولة المرء إن ألف سماعها، خاصة الصغار الذين لا يدركون خطورة خوض هذا النوع من الأحاديث.. كنت أستعد لولوج عالمي الجديد، الذي لا تلوثه أحاديث المغتصبين المنكفئين على بطونهم أمام البالغين.. عالم الحرية الذي يشترط لاجتياز بوابته أن تنزع عنك رداء الخضوع، وترتدي درع الكفاح، الذي يضمن لحريتك أن تكون أبدية.

Twitter: @abdullah_1395

هكذا كنت أفكر لأنني كنت لا أزال بعد صغيراً؛ ولأنني كنت لم أبرح من قبلُ عتبات شارعنا؛ ولأن أبي على رغم كل ما كان يفعل بي، كان في النهاية يطعمني ويكسوني وينقدني مصروفي كل صباح، ولم يختلف الوضع عن ذلك كثيرا طيلة الأشهر الثلاثة التي أمضيتها برفقة حبيب في الشرقية، فقط كان عليّ أنا وأخي أن نعتمد على بعض التدبير، حتى يكفينا عائد المغسلة التي نجح في استئجارها لإعاشتنا والإنفاق علينا.. لكن الرحلة الحقيقية مع المجهول الذي تركت دار أبي لأواجهه بعد عودتي لجدة، حينما غادر فجأة حبيب لإكمال دراساته العليا في الخارج، بدأت في ميناء جدة.. تخليص البضائع في الجمارك، خاصة الفاكهة التي لا ينبغي أن يطول انتظارها في الميناء حتى لا تفسد، وينبغي أيضا ألا تفتش تفتيشا دقيقا حتى لا تتفكك عبواتها، وحينها يلزم أن أعيد تعبئتها في عبوات صغيرة من جديد.. من أجل أن يتم هذا كله بالصورة المثالية التي نرجوها.. يلزمك أن تربطك بموظفي الجمرك في الميناء علاقة خاصة.. نوع علاقات جديد أشبه بعلاقات (الواد والعم).. لكنها تمارس في الميناء وليس في الأزقة.. نوع آخر من الخضوع أمام قهر موظف الجمارك، الذي يفرض عليك مبلغا ماليا معينا في مقابل خروج بضاعتك بسلام وفي أسرع وقت ممكن قبل أن تفسد.

كانت سُنّة متّبعة في الميناء بين الموظفين والمخلّصين، إلا أنا.. ليس من باب الشجاعة أو التمرد، وإنما من باب الخوف.. الخوف على لقمة العيش التي وفرها لي عملي في مكتب تخليص البضائع.. أصحاب المكاتب يضيقون ذرعا باستنزاف المخلصين لأموالهم من أجل إرضاء موظفي الجمارك؛ لذا كانت وظائف المخلصين قصيرة الأعمار، وكنت أريد لوظيفتي أن يطيل الله في عمرها حتى أنهي دراستي الثانوية وأحصل على شهادتي.. في سبيل ذلك كنت أتحمل تفتيش الشاحنة التي تحمل فاكهتي علبة علبة، ثم أقوم بلملمتها من جديد وتعبئتها حتى ينقصم ظهري من التعب؛ وعليّ أيضا أن أتحمل اضطهاد موظفي الجمارك، وتأخيرهم مخالصتي حتى أخرج

Twitter: @abdullah_1395

الأخير بشاحنتي من الميناء.

كان عليّ أن أتحمل إلقاء أحدهم أوراق التخليص في وجهي، مُنكّلا بي جزاء رفضي إقراضه مبلغا من المال، على ألا يرده بالطبع.. لقد رفضت الانبطاح في دارنا، ورفضته في شارعنا، وكان علي أن أرفضه في الميناء؛ فلن يكلفني أكثر مما كلفني في الماضي.. لن أقوم يوما بدور (الواد)، ولن يكون لي (عم) أبداً.

- سامي معك ألفين ريال سلف.
- لا والله.. ما معايا غير فلوس البضاعة.
- خلاص.. أعطيني منها.
- كيف أعطيك منها.. ياخي هذا مال ناس.
- هذا رأيك؟.. خلاص خلي مال الناس ينفعك.. والله ما تخرج بضاعة الناس إلا الفجر.. أنا راح أخليك تشوف التفتيش اللي عمرك ما شفت مثله.

في بلادنا.. الجميع يريدون منك أن تنبطح أمامهم حتى تنال رضاءهم، أو على الأقل اتقاء للإيذاء.. شريعة الخضوع قدر يلاحقك أينما ذهبت.. خلف أسوار المنازل وخارجها.. في الشارع.. في العمل.. حتى المنبطحون لغيرهم أصلاً، يحاولون أن يصنعوا منك منبطحا صغيرا يتمدد على بطنه أمامهم، حتى يرضوا عقدهم وشعورهم بالقهر والخضوع. شيء من هذا واجهته في بهو الصحافة، عندما كنت لا أزال مراهقا يبدأ أولى خطواته، بعدما أنهيت فترة حضانتي الأولى في تعلم العمل الصحفي، العمل الذي دلني عليه أحد أصدقاء حبيب أخي، من الذين انتقلوا للعمل في العاصمة.. كانت بالنسبة إلي قشة النجاة التي انتشلتني من أرصفة الميناء، ورفعت عن ظهري سياط موظفي الجمارك النهمين الذين قاومت الانبطاح أمامهم حتى ذقت الهوان، وكدت أسجن على يد أحدهم، عندما هرّبوا شحنة من

Twitter: @abdullah_1395

الذهب المشغول بين صناديق فاكهتي، بعدما دفعت رسوم شحنتي الجمركية واستوفيت أوراقها.. كانت أصابع الاتهام كلها موجهة إلي، بعدما ثبت أن الذهب خرج مع آخر شاحنة خرجت من الميناء، ولأن المنبطحين من المخلصين كانت شاحناتهم تمر أولاً، فإن شاحنتي كانت تخرج الأخيرة دائماً، بعدما يتعطف الموظفون ويضطرون إلى الإفراج عن صناديق فاكهتي، ثم أمضي ساعات في إصلاح ما أفسدوه عن عمد، وإعادة تعبئة الفاكهة إلى صناديقها التي خضعت للتفتيش الهمجي صندوقا صندوقاً.

كانت الخطة محكمة لإخراجي من الميناء إلى غير رجعة.. هربوا بذهبهم، وكان علي أن أدفع الثمن، لولا دعاء صابرة؛ فقد اعترف سائق شاحنتي الباكستاني الذي كان متواطئا معهم بعد الضغط عليه من قبل رجال المباحث بأنني لم أكن طرفا في الجريمة، بعدما كنت أمضيت ثلاثة أيام في السجن على ذمة التحقيق.

الميناء لم يكن أكثر من فاصل قصير، وإن كان مريرا من تلك الفواصل التي اعتادت الفضائيات قطع البرامج والمسلسلات بها.. ربما يشاهده حسام، الفتى الأسود المضطهد، ولا يخطر في خياله حتى أن يكون سامي الرجل الذي آلمه ظهره من الانحناء أمامه هو بطل، أو بالأحرى كومبارس، ذلك المشهد.. أن سامي الصحافي هو نفسه سامي مجهول الأب لدى جميع من في الميناء الذي ربما يناديه موظفو الميناء باسمه، أو بأي اسم يخطر على بال أحدهم على اعتبار أنه نكرة، ولا يهم حتى أن يناديه الناس باسمه.

كم كنت أود حين التقيت الفتى الخجول المسكين في مقهى جدة أن أقول له هون عليك فلستُ الرجل الذي ينتظر أن ينحني له أحد؛ فأنا ذلك الفتى الذي ذاق مرارة الانحناء القسري على كراتين الفاكهة، أعيد لملمتها وتغليفها، وتحميلها، حتى مزقت ظهري آلام الانحناء.. وشقق قدميّ وفطرهما نسياني ارتداء نعلي في خضم التعبئة والركض لاهثا بين مكاتب موظفي الميناء.. أنا الرجل الذي ذاق من مرارة حياته الماضية ما غطى على حلو قادم الأيام.

Twitter: @abdullah_1395

في بهو الصحافة أحسست أنني للمرة الأولى أدخل المكان الطبيعي لشاب دفع ثمنا غاليا وقاسيا من أجل أن يتعلم، ويحصل على شهادته.. أحسست للمرة الأولى أنني انتزعت اعترافا بوجودي في العالم الذي اعتاد إنكار الآخرين.. أخيرا التقيت أصحاب الأقلام وجها لوجه، وأصبح في استطاعتي مصافحتهم في الطريق.. الأسماء التي كنت أقرأ لها وأرى صورها فقط في الجرائد، أصبحت وجوههم تبتسم لي في المصاعد، وتقول لي شفاههم: (كيف حالك).. أنا الذي لم تكن الحياة بالنسبة إلي أكثر من حفنة أسرار أضيق بها، ولا أطلع عليها أحداً، وحيوات الآخرين حولي أيضا حفنة أسرار لا يريدون أن يطلعوا عليها أحداً.. أصبحت أشاهد رفاق عالمي الجديد، والحياة بالنسبة إليهم ربما تكون أيضا حفنة أسرار، لكنهم يسعون لإطلاع العالم عليها.

كنت أعمل ليل نهار.. تنطفئ الأجهزة إلا جهازا يشكو ما ناله من الإرهاق على يدي صاحبه اللتين لا تتوقفان عن الضرب على أزرار لوحة مفاتيحه.. فعلت المستحيل حتى أحافظ على بقائي على أرصفة الميناء، فليس أقل من أن أنتحر هنا سهرا وحملقة في تلك الأجهزة؛ حتى أضمن ألا أعود إلى الركض بين مكاتب موظفي الميناء، حتى تشققت قدماي، وأصبحت في نظر من لا يعرفني لست أكثر من متشرد رث الثياب أشعث الرأس مغبر الوجه.

عندما كنت بعد على أول الطريق، تتحسس أناملي أزرار الأجهزة، ويرتعش قلمي على الصفحات، كان كل شيء مثاليا حد الاحتضان من الجميع، لكن السرعة التي استطعت بها استيعاب العمل، ومحاولاتي الإبداعية للفت أنظار الرؤساء إلى وجودي وكسب ثقتهم ومحاولاتي الجادة لاختصار وقت كثير، غيرت أشياء كثيرة من حولي، أو ربما كانت تلك حقيقة الأشياء، وكنت صغيرا بعد على رؤية تلك الحقائق بوضوح.. زملاء الأمس الطيبون الذين حرصوا على تعليمي كل شيء، أصبحوا أعداء اليوم الشرسين الذين لا يتوانى أحدهم في أن يظهر عداوته لي في وجهي.. كان علي أن أنسب كل فضل وجهد وإبداع أقوم به إليهم حتى أنال رضاءهم.. أن أبقى في الظل لا

Twitter: @abdullah_1395

يعرفني ولا يسمع بي أحد؛ حتى أبقى صديقا للجميع.. انبطاح آخر.. قهر جديد.. لم أكن أتصور أن بهو الصحافة أيضا لم يكن استثناء من منطق القهر والخضوع، لكنني مع الوقت تعلمت أن الانبطاح في أروقة الصحافة أشد وطأة، وأن (الأعمام) في هذا العالم الحافل بالمنبطحين لا يسمحون لصبيانهم بالإفلات من تحتهم أبدا أو لمّ سراويلهم مهما كلفهم من ثمن، وأنك ربما تضطر إلى الدفع بأحدهم خارج الرواق إلى الأبد حتى ترفعه عن ظهرك، وتتجنب انبطاحك أنت تحته ـ أيضا ـ إلى الأبد.

لم أكن أجيد شيئا سوى العمل، والعمل، والعمل.. فكرت كثيرا في وسيلة تعصمني من أن أعيد سيرة (الواد) وسط لوطيي عالمي الجديد، لكن دعاء صابرة كان أسبق من حيلتي.. كانت الأقدار دائماً تضع الرؤساء في مواجهة مع أعمالي، كلما هم أحدهم بتفقد الجريدة، فيكون أول ما يشد أنظارهم وجودي على جهازي وأنا أكتب أخباري وتحقيقاتي التي أشرع في وضع لمساتي الأخيرة عليها.. كانوا يعتقدون ذلك، ويقولون صراحة إن مواضيعي تشدهم، بينما كان يقيني أنه دعاء صابرة الذي كان يشدهم وليس شيئا آخر، دعاء صابرة الذي جنبني دائماً الانبطاح أمام القدامى من أجل أن يوصّلوا عني صورة طيبة إلى الرؤساء، أو على الأقل حتى لا يشوهوا صورتي ويتسببوا في سحب الثقة مني.

لم تكن أمي تتوقف عن الدعاء لي أبداً، ولم تكن أيضا تتوقف عن البكاء على صغيرها المسكين الذي طرد بلا رحمة من عالمه الصغير، وألقي في موج لا يقدر على ارتياده إلا الكبار.. ولم يكن لأمي سوى بارئها تشكو إليه بثها وحزنها، وتدعوه أن ينجي صغيرها ويرده إليها سالما غانما ظاهرا على كل من ظلموه.

كان يشغلني أكثر ألا يعاودني الشعور بآلام الظهر التي كانت تهاجمني إثر نهار من الانكفاء على صناديق الفاكهة على أرصفة الميناء، بعدما تبعثرها في كل وجهي أيدي موظفي الميناء المرتشين الذين ينهالون بأقدامهم على جسد كرامتي المعرضة للانسحاق تحت أحذيتهم في أي لحظة يشاؤون فيها

Twitter: @abdullah_1395

أن ينكلوا بما بقي لي من إنسانية.

- تعبان يا قلبي.
- شوية يا أمي..
- أدلك لك ظهرك.
- لا يا أمي الله يسلمك.. ما أبغى أتعبك..

يدا صابرة كانتا تنتظراني لتنتزعا مني آلام الظهر التي أعود بها كل مساء، أكتم عنها آهاتي التي تتفلت من حلقي كثيرا على غير إرادة مني، في الشقة التي كانت تكبدني نصف ما ألتقطه من فتات أرصفة الميناء، وأعود به لأمي التي تشاطرني الجوع والظلم، بعدما كادت تموت يوما تحت وابل من عصا الخيزران أنهال به العملاق الذي تزوجته على كل قطعة من جسدها، مخلفا خطوطا حمراء وزرقاء بطول وعرض جسدها تنزف دما وألماً.. كادت تزهق روحها تحت التعذيب الذي استمر قرابة نصف الساعة، لولا أن الله أراد لها أن تعيش حتى ترى نبوءة (آمنة خان) الطبيبة الهندية تتحقق:

- سبحان الله.. ربنا رزقني بيك يا سامي عشان تسترني في آخر أيامي.
- الله يسترك ويسترني دنيا وآخرة يا أمي.. ليش بتقولي آخر أيامي.. تدري.. أنا جالس أفتش لك على عريس.
- (تضحك).. الله يسعد أيامك يا سامي.. أنت عريسي يا قلبي.. كفاية علي أنت من الدنيا.. أنت اللي باقي لي يا ابني.
- طيب.. كفاية لا تبكيني وأنا تعبان ما أقدر أبكي.. إش رأيك في سندوتش الفلافل.. بالهنا والشفا.
- لا.. بالعافية على قلبك يا حبيبي.. أنا شبعانة.
- أنا أكلت مع أصحابي وبطني منفوخة من الأكل.
- أنا ما ربيتك على الكذب يا ولدي.. تعال نتقاسم الفلافل.. ولا تكذب

Twitter: @abdullah_1395

مرة ثانية.

هكذا علمتني صابرة ألا أكذب.. ألا أتظاهر أمامها بالشبع وأنا جائع.. كم كنت ساذجاً.. كيف تصورت أن أمي التي تعيش بنفس ملاك تغمرني رحمته، لا تشعر بجوعي.. صابرة لم تأكل بمفردها أبداً.. منذ كنت طفلا وأنا أشاهدها تقسم طعامها علينا وتبتسم مهما كنا ممتلئين من الطعام.. ومهما كانت جائعة..

كانت أمي أصبر على الجوع مني.. فقد كانت تمضي معظم أيامها في منزل السيد جاسر صائمة، بينما تنتظرني بالطعام كلما مررت من أمامها أو دخلت عليها تشدني من يدي لتضع لقمة أو قطعة فاكهة أو مزعة لحم في فمي، ثم تقبلني وتتركني أنطلق إلى اللعب، حتى عندما كنا نجتمع كلنا حول الطعام لا يحضرني أبدا وجه أمي وفمها يلوك شيئا فيه.. كل ما يحضرني وجهها الذي يبتسم لنا أنا وإخواني ونحن نلتهم كل ما حولنا ثم تسألنا حال مغادرتنا مواقعنا حول صحن الكبسة.

- شبعتوا.؟
- تسلم الأيادي يا أمي.
- الحمد لله.

كنا نأكل، وكانت صابرة تحمد الله بالإنابة عن الجميع، حتى لا تزول النعمة، رغم أنها كانت زاهدة فيها، تماما مثلما كانت زاهدة في (سندوتش الفلافل) الذي كنت أطعمها لقيمات منه في فمها عنوة وتحت تهديدي لها بأني سأنام جائعا إذا لم تشاركني الطعام.. بعدما اضطرت أمي إلى الخروج من منزل السيد جاسر إلى غير رجعة، لم يعد لها من طول الحياة وعرضها سوى شقتي التي استأجرتها بدلا من مقلب القمامة الذي كنت أعيش فيه بمفردي.. ولم يكن لها من الناس غيري تودعني بدعائها خارجاً، وتستقبلني بابتسامتها وأحضانها عائدا وأنا ألتقط يدها لأطبع عليها قبلة المساء.

Twitter: @abdullah_1395

صابرة.. كانت التضحية دائماً خيارا وحيدا تجد نفسها مدفوعة إليه.. حتى أن حياتها عمرا في منزل الرجل الصعب كانت تضحية من أجل تربيتنا.. بيد أن تضحيتها الكبرى، كانت يوم علمت بفرصة ابتعاثي إلى أوروبا بعدما انتقلت إلى عالم الصحافة وأحست أن آمالها التي كانت طالما تتمناها لي، أخيراً.. ستتحقق.. كان أمل صابرة الذي ضحت من أجله بكل شيء أن ترى سامي.. طفلها المعذب.. نبوءة (آمنة خان) يصعد.. ويعلو، ويرتقي حتى ولو كان ذلك على رفاتها..

- يا أمي يصعب عليّ فراقك والله..
- معليش يا ولدي.. أنا أبغاك تسافر.. هذا أمر.
- يا أمي راح أموت من الخوف عليكِ.
- اطمن يا قلبي.. طول ما أنت بتعلى أنا راح أكون بخير.
- طيب إيش رأيك تسافري معايا؟
- لا يا قلبي.. أنا عشت عمري غريبة.. وما أبغى كمان أموت غريبة.. راح أنتظرك.. وإن شاء الله ترجع منصور يا قلب أمك.

ما كادت صابرة تنزل يدها التي امتدت طويلا بسؤال ربها أن ينصر ولدها حتى ارتأت إدارة المؤسسة أنني الأجدر من بين الشبان السعوديين لابتعاثي إلى لندن.. أخيرا وجدت طائرتي التي أعياها التنقل بين جدة والشرقية والرياض طريقها لعبور أجواء عالمي الحار الذي يلهب أجواءَه تناجي المثلين وزفراتهم.. فورة أجساد البالغين المحرقة، واحتقانات أجساد الصبيان الحارقة.. السباب والركل والصفع والغضب المستطير في أعين جلاديها وطغاتها خلف أسوار البيوت وفي الطرقات.. في عملك.. في صحوك.. في منامك.. كوابيس لا تعرف طريقها إلى رأسك إلا عندما تغمض عينيك ممددا على بطنك في عالم كل ما فيه يطالبك بـ(فسخ سروالك) حتى تعيش.. لم يكن يهمني كنه تلك الأرض التي ستحط إطارات طائرتي

Twitter: @abdullah_1395

عليها، كان الأهم بالنسبة إليّ أنه لن يطالبني أحد هناك بالانبطاح.

ربما كان سر نجاح هؤلاء الذين التقيتهم في مهجري، أنه لا أحد يريد من أحد أن ينبطح على بطنه، ولا أحد يقبل بالانبطاح، تماما مثل اللبناني الذي تشاجر مع رئيس أحد الأقسام الفنية الإنجليزي، عندما التقيا بسيارتيهما خارجا أمام البناية التي يقطنها كل منهما لأسباب لم يبدياها لأحد.. بقي فمي فاغرا من الدهشة بعدها بأشهر عندما أعطى رئيس القسم درجات عالية لعمل زميلي اللبناني في التقييم الأخير.. كان الأمر بالنسبة إلي أشبه بشيء خيالي غير مبرر أو مفهوم.. همست بدهشتي في أذن أحدهم؛ فاللبناني لقن الرجل علقة كانت تكفي لنشوب عداوة تاريخية بينهما، وقد نشبت بالفعل، وكان التقييم فرصة مثالية ليقتص الرجل الموتور لكرامته، هكذا علمتنا الحياة في بلادنا، لكن زميلي السعودي الذي أسررت إليه بدهشتي ضحك متفهما حداثة عهدي بهذا العالم الجديد، قائلاً: "تعاركوا في الشارع.. والحين حنا في الجريدة.. مو في الشارع".. صمتّ طويلا حتى أستوعب عبارته، ثم فهمت أن منطق القهر، واستغلال القوة، والنفوذ، والرضوخ، والانبطاح، مفردات غير واردة في معجم تلك الحياة.. فهمت أيضا أنه عليّ أن أستعد لتصحيح كثير من مفاهيم الحياة في الأجواء الحارة التي أتيت بها إلى عالم يحرص كل من فيه على أن يبقى الرجل رجلا مادام يريد ذلك، فإن أراد أن يكون بطة فله ذلك أيضاً، ولكن على أن يكون بإرادته وليس خضوعا لأحد.

أجواء لندن المشبعة بطقوس المثليين أيضا كانت تختلف كثيرا عن أجوائنا؛ فالمثليون هناك سعداء لأنهم يفعلون أشياء يجنحون إليها بطبيعتهم وإن كانت شاذة، بيد أنه لا أحد يفرضها عليهم، ولا يستدرجهم إليها أحد.. المثليون هناك واضحون ويعترفون بمثليتهم إلى درجة أن يقف أحدهم أمام الكاميرات وهو يعانق زوجه الذي يرتبط به في الكنيسة.. المثلية هناك مثلية فقط، وليست شيئا آخر.. ليست قهرا ولا خضوعا ولا استسلاماً، ولا حتى منطقاً.. المثلية هناك حتى وأنت في (سوهو) حي المثليين لا أحد

Twitter: @abdullah_1395

يرغمك على الانبطاح، ولا يمكنك أن ترغم أحدا عليه.. الحرية هناك لذة أولى قبل أي لذة، ورغم ما قد يغيرك من شعور بالرغبة في الغثيان وأنت تشاهد عملاقا مفتول العضلات يدعوك إلى وطئه، إلا أنك لا تستطيع أن تخفي شعورا بالدهشة المبطنة بالزهو، عندما تتصور عملاقا بهذا الحجم منبطحا أمامك لتمارس عليه سيطرتك الكاملة.. رغم كل ما كان يمارس في سوهو من الجنون إلا أنه جنون لا يتخطى حدوده، ولا يقفز فوق أسوار حدود الآخرين لينتهك حرياتهم لمجرد شعوره أنه أقوى منهم.. جنون يغري صاحبه فقط، بينما الجنون عندنا أشبه بثور ينطلق من داخل أسوار صاحبه ليعتدي على كل من لا يستطيع دفعه عن نفسه، وبهذا المفهوم يكون الصبيان والشبان أول المعرضين لهياج الثيران التي تسكننا وحين تنطلق من حظائرنا تدهس كل شيء مخلفة وراءها آلاف المعقدين الحاضنين لفيروس الهياج الذي قد ينشط في لحظة خلوة بطفل أو صبي أو حتى عجوز يلوح بالمال للشبان الأقوياء.

في سوهو تستطيع أن ترى الأسوار العازلة بوضوح تام بين ما يدور داخلها، ومن يتجولون من بائعي المتعة الذكورية والحياة الطبيعية التي يحرص الجميع على ألا يرتاد شوارعها ومنازلها أحد أفراد عالم (سوهو).. بينما لدينا لا تبدو تلك الأسوار بذلك الوضوح.. فقد اعتاد الجميع منذ الطفولة مشاهدة وجوه مثليي سوهو في حاراتنا وشوارعنا يصنعون من أطفالنا أجيالا من المثليين الذين يذوبون في المجتمع في غفلة من الجميع.. حتى تكتشف إحداهن أنها تزوجت أحد أفراد عالم (سوهو).. أو يكتشف أحدهم أن أحد أبنائه وربما كلهم عازفون عن الزواج لارتباطهم بأصدقائهم الذكور.. (سوهو) اللندنية التي تعيش داخل أسوارها تبقى خطرا يمكن أحدهم أن يتقيه دون أن يكلف نفسه حتى عناء النظر إليه.. بينما (سوهو) السعودية تنفتح أسوارها على وطن بأكمله حتى تبتلعه، فلا يكون ثم شيء ولا أحد مضمون.

المثلية عندهم تبقى شذوذاً، أما المثلية عندنا فتبقى قاعدة تطبق في

Twitter: @abdullah_1395

صور عدة: أوضحها أن (يفسخ أحدهم سرواله) وينبطح أمام الآخر ليأتيه في دبره، وأخفاها أن يقهرك أحدهم فتخضع للقهر، وهذا حال الجميع.

على الرغم من كل ما فعلته وبذلته حتى أحظى برضاء الجميع، وأنتزع قرار تنصيبي مسؤولا في أحد المطبوعات في مقر المؤسسة في لندن طوال سنواتي الخمس، وعلى الرغم من موافقة الرؤساء، حتى أن إجراءات التعيين النهائي قد بدأت بالفعل، إلا أن رئيسي المباشر في المطبوعة التي كان يفترض أني سأتولى مهمة العمل معه، وقف حجر عثرة في سبيل الحلم الذي أنفقت خمس سنوات لأحققه.. الرجل كان سعوديا مثلي.. أحد الذين تسللوا إلى مدينة الضباب وهو لم يتخلص بعد من تأثير أجوائنا الحارة على رأسه.. منطق القهر والهيمنة ظل يحكم عقل الرجل المتحجر الذي أمضى ثلث عمره في لندن دون أن يسمح لنسمة من هواء الحرية الذي يتنفسه أن تعبر محيط رئتيه إلى شيء من معتقداته، وعند أول محك كنتُ ضحية أمراض الرجل الذي فسر علاقة الصداقة التي تربطني بسكرتيرة مكتبه العراقية تفسيرات خاصة.. الرجل لم يكن يفرق بين زوجته وسكرتيراته.. كان مواطني يعتبر سكرتيراته بطات لا يجوز لغيره أن يعتليهن، أقصد يتحدث إليهن.. يعتبر مكتب سكرتيراته (حرملك) لا يجوز لأحد من الرجال الغرباء اقتحامه.. الرجل لم يكن يفرق بين موظفيه وممتلكاته الخاصة.. وكنت لي سنوات تخليت عن حذري من كل شخص أقابله، ومن كل شيء يحيط بي.. كنت توقفت عن رؤية كل من حولي حفنة من اللوطيين يسعى كل منهم لاعتلاء الآخر وقهره والهيمنة عليه.. بيد أن أقداري دفعت بي في طريق هذا المريض الذي لم ينتبه أحد إلى حالته.. كان الأمر بالنسبة إليه جد بسيط.. فقط خطاب توصية قصير يفيد بأن العمل لا يحتاج إلّي في لندن، وأن مكتب الرياض أولى بالاستفادة من خدماتي حتى أتولى إدارة مطبوعات أخرى.. ربما عدت مديرا لكنني لم أكن سعيدا أبداً.. لم أكن أتصور أن للقهر في بلادنا ذراعا بهذا الطول، يمكنها أن تلتقطك من قفاك بعدما أمِنتها طيلة تلك السنوات، ثم تقذف بك على أرض بطحاء ملتهبة

Twitter: @abdullah_1395

الأجواء.. تفيق من ذهولك.. تتلفت حولك فتسد عليك زوايا الرؤية دائرة من سيقان خشنة سوداء تكشف لك جلابيبها عن أجساد عارية متوهجة، وعنف ينتصب في وجهك.. همهماتها تتحفز لإخضاعك بالحق وبالباطل، بالقانون وبالالتفاف عليه، بإغداق المال عليك وبقطعه عنك، بالهتاف لك وبسبك.. بمنحك الحرية وبحبسك.. بالدعاء لك وبالدعاء عليك.. كل واحد من هؤلاء يريد منك أن تخضع له، وفي الوقت الذي يحدده، وبالطريقة التي تحلو له، وبما يحقق له أهدافه ولا يسمح للآخرين بتحقيق أهدافهم.. كل واحد من هؤلاء يريد منك أن تكون بطته الخاصة.. عشرات الأيدي تتنازعك.. عشرات التوجهات والأفكار والمعتقدات.. كلها تريد منك أن تكون أحد أفراد جماعاتها.. عشرات الأجساد العارية التي لم يكن بينها جسد حسام المفترَى عليه هو وبنو لونه، تريد أن تقضي وطرها منك، أجساد تتأنق للناس ولا يرى عريها غيرك.. وعشرات الأجساد أيضا لم يكن بينها جسد حسام تنتظرك أن تقضي وطرك منها على أن تمنحها فرصة في الحياة.. حتى المقهورون يفرضون عليك أن تقهرهم وتخضعهم.. مبادرات الانبطاح التي تعرض عليك من الآخرين تحثك على أن تكون لوطيا شئت أم أبيت.. القهر.. الخضوع.. الدوّامة التي لا يتوقف ماؤها عن التدفق والدوران.. الحراث الذي يمارسه المجتمع على أفراده حتى يتركهم خلفه أشلاء لا يقوم لها جسد.. ولا ترتد فيها روح.. كل شيء حولك يقهرك.. كل شيء حولك يخضعك.. كل شيء حولك يسعى إلى محو وجودك وهويتك.. كل شيء حولك يقول لك: انبطح.

Twitter: @abdullah_1395

حط باطك على باطي
نمشي مشية ضباطي

كله خلاص نازل واطي
وآه يا حبيبي.. وسلم عليّ

Twitter: @abdullah_1395

لا أعرف لماذا كان قدري دائماً أن ألتقي المقهورين المنسحقين تحت أقدام الآخرين، في منفانا الوطني، نتجرع معا كؤوس عزلتنا الخاصة، داخل العزلة الجماعية التي يعيشها الجميع، بمن فيهم أصحاب تلك النعال القوية التي تئن تحت ضغطها العنيف رقابنا..

حتى الأوقات التي كنت أتصور فيها أنني أمارس ذكورتي (أقصد رجولتي) فالرجولة لدينا لا يتجاوز مفهومها الذكورة، حتى في تلك الأوقات، كنت أكتشف في ساعات الاعتراف التي تتخللها، أن ذلك الحس الذكوري أو الرجولي أيا كان اسمه أو مفهومه، يفيض داخلي، مخلفا في حلقي جفافا أدلق ريقي عليه ليلطف من وخز أشواكه.

شيء من هذا اعترى حلقي وجسدي كله، قبل أن تغادر ريم المقعد المجاور لمقعدي، الذي اعتدت تطلع وجهها الساحر عليه داخل سيارتي أمام ثورة البحر في جدة، تلك الثورة التي كنت أحسها أحيانا زئيرا مكتوما خافتا يأتي من عمق المياه البعيد، وأحيانا سياطا تجلد الصخور والسيارات المرابطة على الشاطئ بما تحمله من دفء وحزن ودموع وفرح ونكات وجنس محض أحياناً.

- خلاص يا سامي.. هذا آخر ما بيننا؟
- هذا آخر ما بيني وبين الدنيا كلها يا ريم..

Twitter: @abdullah_1395

لكن السيارة التي كانت تقلني أنا والمطلقة التي اعترفت لي في مساء أيقنت أنا وهي أنه الأخير، شهدت غضبة عارمة للبحر، الذي تراجع موجه أمام غضبي الذي كان يتطاير من عيني وأنا أحملق فيه.. خيارات ريم كانت قليلة وربما منعدمة في الحصول على زوج حقيقي بدلا من تمثال الشمع الستيني أشيب الرأس الذي قبض أبوها مقدما ثمن بيعها له.. رغم أنه كان بإمكانها الانتظار قليلا ريثما يظهر من يتقدم إليها من أولئك الشبان، أو حتى الكهول الذين في مقدورهم الوفاء بالتزامات هذا الجسد المتقد أنوثة وتمرداً.. بيد أن الفرسة الجموح التي كنت أحسد نفسي على رفقتها كانت عازفة عن استقبال مشاعل الذكور إلى درجة كانت تثير دهشتي وأسئلتي التي كنت أتحفظ عليها حتى لا تفهم ريم أنها مقدمة لالتقاط شيء من فاكهتها الناضجة.

بيد أن ريم في ذلك المساء تحدثت دون أن أسألها، كانت تود أن تشهد أحدا على ما يحرص الجميع على التستر عليه.. دموع المهزومة التي اتضح لي ليلتها أنها لم تحب في سوى أني مهزوم مثلها، كانت حارة دامية صارخة حانقة على كل شيء، على أبيها المستبد الجاف، وعلى العجوز الذي دفع ثمنها كما لو كانت جارية اشتراها من سوق العبيد ليقذف فيها ما قد يتساقط من شهوة في خريف ذكورته، كانت حانقة أكثر على طليقها الرجل المأساة، الذي كان قدرها من بين عشرات الشبان الذين تقدموا للزواج منها، لكنه الوحيد الذي حظي بقبول أبيها، لأنه الأغنى، الأهم لأنه الأقوى والأكثر نفوذا وقدرة على البطش بوصفه ضابطاً.

كان ..(فهد مفاجأتي الكبرى.. كل مخاوفي وهواجسي وكوابيس نومي التي لازمتني بعد أن فرض علي أبي الزواج من رجل عسكري تبددت، تصورت أولا أن حياتي في بيت الرجل الذي لا يعرف سوى لغة إصدار الأوامر للآخرين، ستكون معاملته لي فاصلا إضافيا من العنف يكمل به يومه العسكري في بيتنا، وأن حياتي معه ستكون امتدادا لحياتي في بيت

Twitter: @abdullah_1395

أبي، وربما أكثر عنفاً، فقسوة أبي التي كان يوزعها علي أنا وأمي وإخوتي بالتساوي، ستكون لا محالة جنة بالنسبة إلى نار قسوة زوجي الجديد، التي ستكون كلها من حظي أنا.. بيد أن ابتسامة زوجي الذي كان جميلا أكثر من المعتاد بالنسبة إلى الرجال، حتى من يتحلون بالوسامة منهم، ملأت قلبي فرحا بحياتي الجديدة، التي أغمضت عيني على مدى أفقها البنفسجي الرهيف وأصابع فهد التي تحسست ملامح وجهي كأنه يمرر ريشة صغيرة على بشرتي تلتقط برفق طرفي جمالتي آخر قطعة بقيت على جسدي كنت أتوقد شوقا لأن يرفعها عني سريعا حتى لا يبقى شيء يحول دون امتزاج لحم كأنني الرفيق بلحمي الخوف الذي كان يرجفني كغيري من الفتيات خشية دهس الذكر الهائج أنسجتي الرقيقة تبدد على يدي وشفتي وأنف عصفوري الناعم الجميل، الذي جعلني أخجل من نفسي أنني ربما أكون أول فتاة لا خبرة لها تتمنى في ليلة أن يمارس معها زوجها قدرا من العنف الذي تحتاجه المرأة في لحظات معينة من نشوتها.. بيد أن أداء عصفوري ظل على وتيرته الهادئة الناعمة، حتى أنني استنهضته لإنهاء وضع بصمته على بكارتي حتى تستطيع أمي رفع رأسها وسط نساء أهله في الصباح. مع اقتراب نهاية عام زواجنا الأول الذي لم يكتمل بدأت تدب الحيرة بعنف في رأسي.. ثم شيء لم أفهمه أبدا في علاقتي بفهد الرقيق، الذي كنت كثيرا أرى له وجها آخر عنيفا مخيفا ربما أكثر من وجه والدي، عندما كنت أحدثه عن مداعبة جسدي بيديه ربما لأكثر من ساعة، كثيرا ما كانت تكتمل مضاجعته لي ولم يستخدم سوى أصابعه التي كانت تتسلل في لحظات نشوتي إلى مناطق لا أريده أن يتعود أو أتعود على الحصول على متعتي عن طريقها. كانت ثورته تزداد أكثر عندما لا يجد مني حماسا لمبادلته شذوذه.. رغم أني كنت أكره هذا حد الغثيان، إلا أنه كان علي أن أتقي به سوء معاملته جراء امتناعي.. شيء غريب كان يحدث ولم أكن لأفهمه حينها أبداً.. شيء غير كل الذي كنت أسمع عنه من صديقاتي وقريباتي المتزوجات، وبالطبع لم يكن ممكنا أن أفاتح فيه أحداً، لكن الأمور تطورت على نحو جعلني للمرة

Twitter: @abdullah_1395

الأولى أفاتح أمي، عندما عدت ثائرة من رحلة اصطحبني خلالها فهد معه إلى البحرين.. في تلك الليلة أصر على أن أشرب خمرا معه.. اعتبرتها أحد التنازلات التي أقدمها لإرضائه حتى أحافظ على بيتي وزوجي.. لم أعرف كم شربت من الكؤوس، لكنني بعد قليل أحسست اختلالا في توازني.. كنت مدركة وغير مدركة.. واعية وغير واعية.. أشعر بكل ما يدور حولي ويحدث لي بيد أني لا أستطيع إيقاف شيء أو السيطرة عليه.. لكنني بدأت انتبه شيئا فشيئا في غرفتنا في الفندق لاحتكاكات شديدة بدأت تثيرني بقوة لفتاتين روسيتين ربما، استأجرهما زوجي لإقامة علاقة معي أمامه.. مع أول بادرة لعودة وعيي إلي دفعت الفتاة التي كانت تلتصق بي، ولطمت السحاقية الأخرى، هددته إن لم يرحل معي إلى الدمام فورا سأطلب الشرطة، وفي الدمام طلبت منه أن يوصلني إلى منزل أهلي في جدة.. بيد أنه في اليوم التالي كان يستقبلني في منزلنا.. لم تجرؤ أمي على سرد شيء مما حدث لأبي، بينما كبرياء أبي صورت له أن بقائي خارج منزل زوجي وهجره ضرب من (قلة الأدب) وهذا يعني في قانونه أنه سيظهره أمام الناس رجلا لم يستطع تربية ابنته. أمرني أبي صباح اليوم التالي أن أعود إلى زوجي في الدمام، حتى يعلم الجميع أن أبي رجل قوي يحكم قبضته تماما على بيته وبناته. عدت إلى منزلنا أنا وفهد الذي عاد عصفورا ثانية، حتى يمتص غضبي بيد أني كنت فزعة خائفة من كل ما حدث.. كنت في حاجة إلى يد تمتد إلي بالمساعدة إلى أن يقول لي ماذا يجري، ولماذا زوجي أنا مختلف إلى هذا الحد عن كل الأزواج.. استطعت الاتصال أخيرا عن طريق النت مع أحد أساتذة علم النفس البريطانيين عبر موقعه الخاص، وذات صباح فتحت بريدي الإلكتروني فوجدت ردا طويلا مفصلا من الرجل الذي شرحت له تفصيلا ما يدور بيني وبين زوجي في غرفتنا.. عند السطر العاشر تقريبا من الرسالة توقفت عن القراءة، فما قرأته كان يغني عن الذي لم أقرأه.. فهد زوجي وعصفوري اللطيف ليس سوى لوطي تستر على واقعه الجنسي المهين بالزواج، حتى لا تثار حوله الشكوك والأقاويل.. هذا ما تصورته في

Twitter: @abdullah_1395

البداية وكان بالنسبة إلي مبررا منطقيا لرجل لا حاجة له في النساء، بيد أن السبب الحقيقي الذي ارتبط بي زوجي المثالي من أجله كان صدمتي الكبري التي واجهتها وجها لوجه يوم استضاف سالم، صديقه الذي لم يتوقف عن أحاديثه معه عنه ويعتبره واحدا منا، في منزلنا طلب مني إعداد وليمة فاخرة عامرة بالأسماك لصاحبه، قال إنها أطباقه المفضلة.. طلب مني ألا (أفشله) أمام صاحبه، وأن أبدي من زينتي ما يجعله يفاخر بنسبه وزوجه أمام صديقه الوحيد.. بعدما فرغنا ثلاثتنا من العشاء الذي كان حافلا بالنظرات (الأنثوية) من زوجي لصديقه الذي كانت نظراته ذكورية صريحة يتظاهر فهد بأنه لا ينتبه إليها مطلقاً.. بدأت برفع أطباق الطعام من فوق المائدة وإعداد المشروبات لزوجي وضيفه المريب، بينما استأذنت في الذهاب إلى غرفة المكتب لقراءة أوراق مهمة وطلب فهد أن أؤجل المشروبات حتى ينتهيا وألا أقاطعهما أبدا لأي سبب.. ملأت الريبة قلبي.. تظاهرت أنني غارقة في المطبخ ولا أسمع نداءات فهد المتكررة ليخبرني أنهما ذاهبان إلى الغرفة.. بعد قليل تسللت إلى الردهة.. اتجهت إلى باب الغرفة الموصد، ألصقت أذني على ثقب الباب.. صعقتني تأوهات زوجي الذي يئن كالنساء، حاولت أن أتلصص عليهما من ثقب الباب فلم يكونا في كادر الثقب.. انتهزت فرصة ارتفاع صوتهما.. أدرت مقبض الباب بحذر..غرست عيني في الشق الذي انفرج من الباب.. رجلي العسكري كان امرأة خالصة.

أدركت حينها أنه لم يكن ثمة شيء يدعوني إلى الخجل من مشاعر الأنثى التي خلقها الله داخلي، إذا كان زوجي الرجل لم يخجل من مشاعر مشابهة لمشاعري رغم أنه رجل.. اسود كل شيء في عيني.. دارت الأرض والجدران بي.. توازنت حتى وصلت إلى كنبة صالة الجلوس.. ارتميت فوقها غير مصدقة شيئا مما حدث.

لم يكن هذا كل شيء في ذلك المساء الأسود.. فبعد قليل خرج علي زوجي وزوجه من غرفة نومهما..

Twitter: @abdullah_1395

- اتفضل يا سالم.. اجلس..

قالها وهو يشير إلى موضع فارغ بجواري على كنبة صالة الجلوس

- حبيبتي عندي موعد مهم جداً الحين..

لا تقصري مع سالم.. تراك صاحب بيت يا سالم..

المثلي المريض الحقير الذي تزوجته يريد أن يهبني لصاحبه، لقاء ضجعاته هو التي يحصل عليها.

قبل أن ينصرف أمرته أن يصطحب معه كيس النفاية الذي دعاه على لحمي.. كان واضحاً أن أمي أخبرت أبي هذه المرة بكل شيء، فطلب من المثلي الذي زوجني إياه أن يطلقني في هدوء).

ثمة شيء لم تقصه ريم من حكاية زوجها الضابط المثلي.. أن كلية الضباط التي تخرج فيها، لم يكن بين من مارسوا معه اللواط من زملائه فيها أحد السود المتهمين دائماً بفض بكارة الشبان ذوي البشرة الوطنية. وأن حضرة الضابط فهد كان بكامل وعيه وإرادته ويفاعه، إلا أن نداء داخله جعله يستجيب لرغبة الآخرين تلبية من نداء آخر داخلهم لوطئه وقهره وتدجينه والسيطرة عليه.

Twitter: @abdullah_1395

Spanish lessons

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

رحلت عن لندن ولم تعرف مدام (ليا) التي لم ينقطع اتصالها بي إلى أن ودعتها الوداع الأخير، لماذا غادرت منزلهم الذي لم أكن لأحلم يوما أن أقيم في منزل مثله.. وأين؟.. في لندن!!.. دهشة (أمي البديلة) لم تتوقف أبداً.. في اتصالاتها بي كانت دائماً تلمح أكثر مما تصرح برغبتهم في أن أعود إلى منزلهم.. كثيرا ما كان أوليفر الصغير يخطف سماعة الهاتف من يد أمه ليتحدث إلي بلهفة صغير بريء، لم تعلمه الحياة الحذر من الرجال الغرباء، كما تعلمنا في طفولتنا.. مدام (ليا) لم تكن تتوانى أبدا في فعل أي شيء تشعر بأنه سيجلب رضائي، كأن توفر عليّ عناء غسل وكي ملابسي، ولم يكن هذا ضمن بنود إقامتي لديهم؛ لكنها قدرت ظروفي المالية وسهري على العمل والدراسة فبادرت بمساعدتي، ولم يكونوا ملزمين به على الإطلاق.. حتى كلب الأسرة كانت ملابسي محرمة عليه أن يلمسها.. بل كانت غرفة المعيشة كلها محرمة عليه حين أكون في ضيافة عائلة نورمان..

كنت أتصور أن المرء يصعب أن يجد امرأة في العالم تحنو عليه وتهتم لأمره هكذا، إلا أن تكون أمه.. لكن السيدة نورمان كانت تحمل في قلبها من الحب ما يكفي للحنو على غرباء العالم، بيد أنها خصتني أنا بهذا الحب كله.. على رغم هذا كله تركت منزل نورمان. السبب المعلن، الذي لم تقتنع به مدام (ليا) بالطبع، رغبتي في السكن قريبا من العمل، بينما السبب الحقيقي ما حدث ذات صباح، بينما كنت أهُم بترك ملابسي لدى مدام

Twitter: @abdullah_1395

(ليا) لتغسلها كما كانت تلح علي دائماً.. لم تنتبه السيدة إلى أن أوليفر الذي رآني من الشرفة قادما أسرع بفتح الباب قبل أن أهم بضرب الجرس.. كانت السيدة تتحدث بصوت مرتفع ولم تنتبه إلى وجودي.. على غير إرادة مني التقطت أذناي أطرافا من الحديث الذي كان بالعبرية، وانتهى بكلمة "شالوم لاخيم"... الأمر بالنسبة إلي كان أشبه بحلم يقظة مزعج، حاولت ألا أصدقه، لكنني كنت متيقظا تماماً، وأعي كل شيء.. هذا المنزل الكبير.. هذا أوليفر.. وهذه مدام (ليا).. أمي.. اليهودية!!

كنت كلما أخلو إلى نفسي أسأل: لماذا تركت منزل نورمان؟!.. الناس كانوا أكثر من مثاليين معي.. كانوا يحتضنونني بينهم وينزلونني في منزلة ابنهم الأكبر الغائب، حتى أنهم منحوني غرفته.. فلماذا هذا الموقف من أسرة لم تفكر أبدا في الانتقال إلى إحدى مستوطنات الاحتلال في إسرائيل؟.. السيدة اليهودية لم تفرض علي ديانتها أبداً.. ولم تعترض على ديانتي أبداً.. بل كانت تحترمها بل تجلها، حتى أني اندهشت من إلمامها بكثير من مناسكنا، وما نحب، وما نكره، وما نأكل، وما لا نأكل.. حتى الإسلام لم يأمرني باتخاذ مثل هذا الموقف من أسرة يهودية جنحت للسلم معي، وعاشرتني بالمعروف..

لم أكن أجد إجابة عن أسئلة عدة كانت تقفز أمامي كلما تذكرت الأيام الجميلة الدافئة التي قضيتها في حضن عائلتي الأولى والأخيرة في لندن، لكنني كنت أدرك على نحو ما أن للأمر علاقة بالأجواء الحارة التي قدمت منها.. أجواء الحذر والترقب والتوجس من الآخرين.. اعتداء الآخر، الذي اعتدنا في الطفولة أن نتوقعه من كل من يقابلنا أو حتى يلاطفنا.. عندما كنت صغيرا جداً، أذكر كم كان أبي يحذرني من ملاطفات الغرباء ومداعباتهم التي لا ينبغي أن أدعهم يتمادون فيها.. لم أكن أدرك حينها لماذا يطلب أبي مني ذلك.. لكني فعلته.. كنت أسلم بأطراف أصابعي على الغرباء، وربما لا أسلم، ثم أجري من أمامهم سريعاً.. كنت أتوقع أنهم يخفون شيئا خطيرا خلف ثيابهم.. أنهم يضمرون السوء وراء ابتساماتهم..

Twitter: @abdullah_1395

أنهم يستدرجونني بأحاديثهم المتودة إليّ لإلحاق أذى بي.. علمني أبي أن أحذر الغرباء خاصة السود منهم، لكنه لم يقل لي لماذا..!. أمضيت يوما أتساءل في حضرة (أدوفيز) أستاذ الجامعة الذي أخذنا في جولة إلى منزله في أحد أحياء السود في لندن، لماذا كان أبي يحظر عليّ أن أختلط بهؤلاء الناس.. كانوا رقيقين لطيفين إلى درجة جعلتني أمقت ذلك الحظر العنصري الظالم، الذي جعلني أنظر إلى الناس كحيوانات في حظيرة أملكها لا أفرق بينهم إلا بألوانهم.

كان مساء رائعا لم أتوقف طواله عن الرقص والضحك واللعب مع الجميع بمن فيهم صديقة (أدوفيز).. كانت أجمل عبارات مجاملة وثناء سمعتها في حياتي في ذلك المساء الذي تساءلت فيه طويلاً: لماذا كان أبي دائماً يحذرني من الغرباء، على رغم أن التجربة أثبتت لي طويلا أن الغرباء كانوا أرحم بي من أبي؟.. ولماذا كان يحذرني دائماً من السود على الرغم من أن التجربة أيضا أثبتت لي أنهم قوم ودودون أكثر من أعراب بلادنا الذين ربما لا يُقَبِّل بعضهم أبناءهم.. ليس السود في لندن فقط كانوا أفضل في أحيان كثيرة من الجميع، بل السود المنبوذون في بلادي أيضاً، والشاهد الحي على ذلك تلك الرسالة التي فضحت أباطيل أبي وأخي وكل العنصريين الذين رفعوا راية الاضطهاد ضد كل ما هو أسود. أسئلة كثيرة كنت أصطدم بها أكثر مما أواجهها، لكن السؤال الذي عجزت عنه قديما حتى لم أعد أفكر في إجابة له.. واصطدمت به مجددا وأنا شاب يافع، عليه ألا يدع أمورا تمر داخله دون أن يحمل لها تفسيراً، أو على الأقل يدور في رأسه تجاهها سؤال.. لماذا تركت حضن أمك البديلة التي أحبتك مثل أولادها؟ لأنها يهودية؟ ولكنه دينها ولم تفرضه عليك، أو حتى تخبرك به، فلماذا تركتها؟ هل لأن اليهود يحتلون وطنك؟ ولكن المرأة هنا لم تبرح منزلها في لندن؟ هل خشيت أن تكون المرأة تضمر لك شيئا غير ما تبدي؟ ولكن أوليفر الصغير كان يحبك، ومشاعر الصغار لا تعرف الكذب.. فلماذا تركتهم؟..

في كل مرة كانت تعلق قدماي في شرك الأسئلة حول مغادرتي منزل

Twitter: @abdullah_1395

نورمان، كنت أخرج بأسئلة إضافية تجدد حيرتي، وتشير بأصابع الاتهام إلى الأجواء الحارة التي كنت قدمت منها، ومسؤوليتها عن كثير من الأسئلة التي تقفز أمامي كالعثرات في طريقي، ثم لا أجد لها أجوبة.

لكنني مدين باعتراف، أن المرة الأولى التي ذقت فيها طعم العاطفة وأحسست بوجودها حولي منذ وطئت قدماي أرض مهجري القصير، كانت في منزل نورمان.. كل ما في هذا المنزل كان يحبني وكنت أحبه، حتى كلبهم الذي لم يكن يجرؤ على ملامستي.. كان ينبح علي بحب.. قلت هذا لخالد الذي أنكر علي كثيرا ما فعلته، بل اعتبره إساءة لنا نحن المسلمين، أن تعاملني أسرة يهودية مسالمة بهذا الود ثم لا تلقى مني إلا التنكر لصنيعها.. كان هذا أيضا رأي نعيمة التي لم تسعفها الإنجليزية فعاتبتني بالمغربية: "غلطان سامي.. إيش داروا فيك؟!".. معك حق يا نعيمة.. "ولا شي".

فضلت أن أدير ظهري للسؤال، مثلما اعتدت أن أفعل دائماً مع كل أسئلة الطفولة، التي لم أكن أجد لها أجوبة، وأسئلة الشباب التي حاولت أن أجد لها إجابات، ولكنني فشلت.. فشلت في إجابة سؤال: لماذا هجرت منزل نورمان؟.. وفشلت في إجابة سؤال: لماذا انسحبت صوفيا من حياتك بهدوء دون أن تترك دمعة وداع على راحتك، أو تقدم لها أنت دمعة في وداعها؟.. لماذا لم تحظ منها سوى باتصال هاتفي من المطار تعتذر لك فيه عن عدم تمكنها من وداعك لتقديم موعد طائرتها؟.. رددت عليها ثم عدت تغط في نومك وكأن شيئا لم يكن، وكأن التي كنت تقبلها في الـ(هايد بارك) أو على طاولة المطعم، إحدى البغايا تترك لها حفنة جنيهات إسترلينية وأنت ترتدي ثيابك لمغادرة غرفتها؟.. ألم يكن حباً؟.. كان سؤالا جديدا، - أيضا - أدرت له ظهرك.

أسئلة كثيرة لم تجد لها إجابات أبداً، لم يكن بإمكانك أبدا أن تحب صوفيا؛ لأنك كنت جائعاً، والجائع لا يفكر في شيء سوى الطعام.. الطعام وحسب.. كراتين المعمول التي كنت توصي أمك أن ترسلها إليك؛ بحجة أنك توزعها على أصدقائك الكثيرين، ولكنها في الحقيقة كانت وجبة الإفطار

Twitter: @abdullah_1395

والغداء والعشاء معاً، الرئيسية، بعد مرور اليوم العاشر من الشهر، ونفاد راتبك بين إيجار السكن والتليفون وقسط الجامعة وفواتير الكهرباء، ومبلغ الوالدة الذي كنت تقتطعه لها من راتبك، بعدما تخلى عنها السيد جاسر، ولم يعد لها سند في الحياة غيرك بعد الله، تماما مثلما تنبأت آمنة خان الطبيبة الهندية المؤمنة..

- ترى حِملي صار تقيل عليك يا سامي.
- يا أمي أنا مالي غيرك وإنتِ مالك غيري.. بالله لا تقولي هذا الكلام مرة ثانية.

إذاً، ما كان بينك وبين صوفيا لم يكن حباً.. ربما كان احتياجاً، وربما كان رغبة في الحديث والمؤانسة.. ربما كان ارتياحاً.. أو حتى جنسا محضاً، وأيضا ما كان يربطك بـ(ريم) لم يكن حبا بقدر ما كان تعاطفا مع مسكينة مثلك قاست ويلات أجواء بلادكم الحارة.. أسئلة كثيرة لم يكن في إمكانك الإجابة عنها في الماضي بيد أنك الآن بعد إدخال تعديلات لندن عليك، أصبحت تتفهم كثيرا منها، وتستطيع الإجابة.

الحب الحقيقي، ذلك الذي أفقدك وعيك عندما شاهدتها للمرة الأولى.. ياسمين (Jasmine) الإسبانية الموطن والأم، الفلسطينية الأب.. آية الجمال التي كانت تلف رأسها الجميل بذلك الحجاب الذي كان يعجز عن كبح سلطة هذا الوجه الطفولي الرائق، الذي أسر عينيك، فظللت تراقبها كأنك للمرة الأولى ترى فتاة.. أمضيت إجازة الأسبوع تحكي لخالد ونعيمة عن المسلمة الإسبانية التي جعلت منك شخصا آخر، تغزوه مشاعر أخرى غير التي اعتادها مع الأخريات.. شخص تدغدغ قلبه لكنة ياسمين الإسبانية عندما تسألك بالعربية عن اسمك، فتنتظر طويلا قبل أن تجيبها، حتى تتخلص من وقع صوتها الناعم الذي سقط في قاعك، وبعدما ترك دوائر تتدافع من ماء الصمت على وجهك الذي لم يتحول عن وجهها أجبتها:

Twitter: @abdullah_1395

- سامي
- عربي؟
- عربي ونص..
- وأنا عربية ونص كمان..
- من فين يا سامي؟
- تتوقعي من فين؟
- من الحجاز..
- صحيح.. أنا سعودي..
- وإنتي؟
- أنا جنسيتي إسبانية.. لكني فلسطينية الأصل.

قالتها ياسمين وكأنها تتقرب بها إلي.. وكأنها كانت تبحث عن جذورها القديمة التي أخبرها والدها أنها موجودة، لكن ثمة ما يحول دونها.. أخبرتني ياسمين بأن اسمي ولون بشرتي جذباها إليّ، وجعلاها ترغب في التعرف إلي، لكن الوقت كان مبكرا بعد لأخبرها بأن كل ما فيها جذبني إليها، وليس اسمها أو لون بشرتها فقط، حتى أن أشياء داخلي لم أكن أفهمها كانت تدفعني إليها.. تدفعني بقوة لم أندفع بمثلها إلى فتاة من قبل.. تدفعني من دون تعقل أو صبر.

كنت لا أزال جائعا وخائفاً، لكن دفء ياسمين الذي كان يطوقني كلما جلست أتحدث إليها كان يملأني أماناً.. إشراق وجهها البديع بين حدقتي عيني يتخمني بسعادة تنسيني مسغبتي.

كنت زميل دراسة ياسمين، وأستاذها، وأخاها، وصديقها، وأمها، وأباها، لكنني كنت أود أن أكون إلى جوار هذا كله.. حبيبها. كم مرة وددت لو أسألها إن كانت تبادلني شعوري نفسه.. إن كان كل ما فيها يضطرب ويتداخل حين تراني مثلما أضطرب ويتداخل بعضي في بعضي عندما أراها.. إن كنت عالمها مثلما هي عالمي.. إن كنت حبيبها، مثلما هي حبيبتي؟..

Twitter: @abdullah_1395

قالتها وهي تبتسم وتنظر إلى الأرض مثل كل الفتيات العربيات.. قالتها والتفتت بوجهها بعيدا عن وجهي خجلاً.. لم أكن أصدق.. قفزت إلى الجهة التي تنظر فيها.. في لمح البصر كنت متربعا على الأرض حتى أكون في مواجهة وجهها الذي لم يزل بعد ينظر إلى الأرض خجِلاً.. رفعت عيني إلى عينيها وأنا أكررها كالمجنون:

- عن جَد.. تحبيني؟

انبجست ضحكة مكتومة على شفتيها، وحمرة الخجل تكسو وجهها الطفولي، بينما يسقط في حدقة عيني لمع شعاع أسنانها المصفوفة بإبداع.

- سامي.. الناس.

- .. ولا يِهمِّني.

للمرة الأولى في حياتي قلتها.. (ولا يهمني).. وقبل ذلك كان كل شيء يهمني.. كل شيء همّ أحمله على ظهري، وأحسب له ألف حساب؛.. إذاً.. كانت تلك أول إجابة أحصل عليها في حياتي لسؤال، وكان عن الحب.. كانت الإجابة واضحة، أنه ذلك الذي يشعرك عندما تكون أمام من تحب أنه لا شيء يهمك.. لا شيء يشغلك.. لا خوف.. لا جوع.. لا قهر.. لا خضوع.. لا انبطاح..

أمام من تحب يختفي العالم حولكما.. تصبحان هالتين من ضوء خافت تمازج فيها أشعة ملونة بديعة.. أمام من تحب تسقط الذاكرة، وتتوقف الذات عن التطلع إلى المستقبل.. تغرقان في اللحظة وتمتماتها وبريقها ودفئها اللذيذ.. أمام من تحب تتوقف آلامك وعذاباتك.. وأحاديث النفس التي تنوء بها داخلك.. أمام من تحب تشعر بأن كل شيء داخلك يعود إلى فطرته الأولى التي فطره الله عليها، وأن يدا تمسح عليك، فتبرئك من الندوب التي

Twitter: @abdullah_1395

تركها الآخرون في جسدك، وروحك.. ومع من تحب تود لو أنك تتطهر من آثام الماضي، وتصبح صفحة بيضاء لم يمر عليها قلم من قبل، ولا يسطر فيها شيء على رغم منك.. أمام من تحب تشعر برغبة عارمة في البكاء.. البكاء الذي يطهر عينيك من مشاهد الماضي التي لوثها لهاث المثليين.

على بسطة السلم في الدور السابع الخالي في مبنى الجامعة، كنت أتطهر أنا وكائني الشفاف من ملوثات العالم.. كان المكان بالنسبة إليّ ملاذا أقيم فيه صلاة المغرب بعيدا عن أعين الفضوليين، فلما علمت ياسمين بأمري؛ إثر سؤالها عن اختفائي المتكرر في ذلك الوقت، أرادت أن نصلي جماعة معاً؛ لأنها لا تجد مكانا تصلي فيه أصلاً؛ ما يضطرها إلى إرجاء صلوات اليوم حتى تعود إلى مسكنها..

كنت أرتل كما علمتني أمي، ونحيب ياسمين يأتيني من خلفي عارما متدفقاً.. آي القرآن كانت تهز فؤاد المسلمة الإسبانية التي لم تر وطنها أبداً.. كان القرآن وطن ياسمين الذي عاد إليها أخيرا بصوت عربي قادم من هناك، حيث مهبط الوحي.. كنت أرى أثر بكائها على عينيها مُجهِزا علىّ فتنتهما، إلا من بريق هدأة وسكينة كانت تغشى كلينا.. ياسمين علّمت الطفل القديم الذي اصطحبته معي من صحرائنا الوعرة للمرة الأولى أن يستيقظ مبكرا من أجل الاستمتاع بالحياة، وليس من أجل العمل الذي ربما يكون نائما في انتظاره على أرصفته في الميناء منذ المساء.. في السادسة صباحا أكون في انتظارها عند محطة (يوستن)، في انتظار القطار الذي يمضي بنا لساعات حتى نصل إلى مدينة الملاهي (آلتون تاورز) في الضاحية البعيدة، حيث ينطلق طفلانا الصغيران.. طفل الصحراء، وطفلة مروج الأندلس، ثَم فارق كبير كانت تختزله ياسمين وهي تمسك بيدي الخائفين في (قطار الماء) وسط صياح كل من يركبونه في مدينة الملاهي التي شهدت ضحكنا وصياحنا وركضنا أياما لا تزال أجمل ما تحمل ذاكرتي من مشاهد عالمي الفقير.. لكني لا أنسى يوم فرغنا من ألعابنا منهكَين جائعَين، توجهنا إلى أحد المطاعم المزدحمة وقفنا في انتظار أن يحين دورنا.. كان بيدي كل منا

Twitter: @abdullah_1395

مظلته التي يحتمي بها من المطر الذي بدأ يهطل علينا مباركا سعادتنا.. لكن ياسمين طوت مظلتها وانضمت إليّ تحت مظلتي، لم تكن المرة الأولى التي تقترب فيها ياسمين مني في ذلك اليوم، فقد اقتربنا في الصباح ثلاث ساعات في القطار بينما كانت تجلس إلى جواري، وقد هم كل منا بوضع كتابه في حقيبته، وأغمض كل منا عينيه مستمتعا بدفء توأمه الملتصق، أيضا في الحافلة المزدحمة التي أقلتنا من القطار إلى مدينة الملاهي، كانت الحافلة مزدحمة وكنت ملتصقا أكثر بتوأمي الذي بدا مستسلما لتحرشات جسدي الاضطرارية في الزحام.. لكن التصاق جسد ياسمين بجسدي تحت مظلة المطر لم يكن اضطراريا، كانت المرة الأولى التي يقترب مني فيها جسد ياسمين بمحض إرادتها، تطلّعت في وجهي بابتسامتها الطفولية المشاغبة.. مع اقتراب أنفاسنا بدأ يرتخي جفنا عينيها اللامعتين الصافيتين.. أسدلت شفتيها اللتين انفرجتا قليلا، وأنفاسها بدأت تندفع إلى شفتيّ حارة على رغم برودة كل شيء.

- مبسوط؟

- أكيد.

احمرت وجنتا ياسمين أيضا تحت لفح أنفاسي.. أغمض كلانا عينيه مستسلما لجذب قبلة مغناطيسية لا واعية، وجدتني أحول وجهي سنتيمترين متفاديا اصطدام شفتي بشفتيها.. مكتفيا بعناق وجنتينا.. دائماً كنت أحرص على أن يظل ما بيني وبين زوجتي الإسبانية نظيفا لا يعكره شيء إلى أن يصبح جناها حلالا أقطفه ثمرة ثمرة من خديها وشفتيها وكل قطعة اشتهيتها في جسدها الفواح بعطر مروج الأندلس.

بعد مشاجرات طويلة بيننا تخللها قرصات في الأذن والأنف وخَنق رقيق لذيذ من راحتي ياسمين البضتين، اتفقنا أخيرا على أن يكون عدد أبنائنا أربعة: ولدين وبنتين.. كانت ياسمين تحب أن يكون لها ولدان يشبهاني،

Twitter: @abdullah_1395

وكنت أحب أن يكون أبنائي الأربعة يشبهون أمهم.

ياسمين كانت تراقبني بسعادة وأنا أشرح لزملائنا الذين يستعينون بي كثيرا مما يحتاجون إلى توضيحه؛ باعتبار أني الوحيد بينهم الذي يعمل بالصحافة بينما كانت دراستهم نظرية فقط، كانت نقطة تميز لي، وكانت زوجتي الأندلسية تملؤها السعادة وهي تشاهد الجميع ملتفين حول زوجها العربي الشرقي، وتنتظر أن ينتهي من الجميع، ثم يبدأ معها محاضرتها الخاصة في حديقة الجامعة التي يهمس بها في أذنها ويده تعانق يدها وعيناها مغمضتان.

ياسمين كانت تقطع المسافات بيننا بسرعة مذهلة، لم أتصور أن أحدا يجرؤ عليها مثلي.. كانت دروس الإسبانية التي تلقيتها على يدي معلمتي الجميلة الحنون أجمل ما تعلمت في حياتي؛ لأنها كانت تقربني منها أكثر، وأسرع ما تعلمت في حياتي أيضاً؛ لأن معلمتي الماهرة كانت.. ياسمين.

كان كل مرادي من تعلم الإسبانية أن أتقرب بها إلى ياسمين، وأقترب منها أكثر، لكن معلمتي كانت تريد أكثر من ذلك.. ياسمين كانت تصنع مني إسبانيا تضيفه إلى العربي والإنجليزي اللذين يسكناني.. إجراء استراتيجي مشروع من قِبل معلمتي التي كانت تنوي اصطحابي إلى بلادها لنختم صلاتنا اليومية هناك معا على سجادة منزلنا بعدما نتزوج ونعيش في إسبانيا.

أحلام ياسمين كانت تسبقني.. كانت تشدني بقطارها الإسباني السريع إلى وجهتها، بينما عربات قطاري القديم، لم تكن تقوى على التقدم إلى أبعد من لندن، أو العودة إلى الرياض.. لم يكن ثَم شيء أراهن عليه في إسبانيا.. حتى مشروع الصحيفة، الذي عرضت علي ياسمين أن يدعمنا والدها الجراح الشهير لبدء خطواته الأولى، كان رهانا ربما لا ينجح، وأكون قد خسرت أمامه ما حققته في الرياض وفي لندن معا.. أيضا لم تكن أمي لتوافق على شيء من هذا.. لقد وافقت على اغترابي حتى أعود قويا إلى حضنها الذي تاق إليّ أعواما طوالاً.. لا لتفقدني إلى الأبد..

Twitter: @abdullah_1395

نعم أحببت ياسمين بكل شيء ولكن ثمة أشياء لم أكن أملك أن أضحي بها.. نعم أحببت ياسمين، لكن حب صابرة لم أكن لأرتضي له بديلاً وليس كمثله حب.

كان الدور قد جاء على ياسمين لتقرر البقاء معي في لندن حتى نتزوج ونبدأ حياتنا، أو تعود معي إلى الرياض، موطن زوجها المستقبلي.. احتاج الأمر إلى مداولات طويلة بين ياسمين وأسرتها، لكنها أرجئت إلى ما بعد انتهائنا من تقديم مشاريع التخرج.

أمي كانت أول من سمع بنبأ نجاحي وتفوقي.. المركز السادس على دفعتي كان التقدير الذي حصل عليه مشروعي، ولم أكن لأصدق.. هل أمكنني حقا أن أتفوق على هؤلاء الأشخاص الطبيعيين السعداء الذين يتنفسون هواء الحرية كل صباح منذ ولادتهم، بينما قدمت إلى بلادهم فارا من الأجواء الحارة التي كادت تخنقني؟!.. لم أصدق أن مشروعي قفز إلى الأمام في ترتيب مشاريع التخرج، تاركا خلفه مشاريع إنكليزية وفرنسية وإسبانية وكندية.. كانت أمي أول من سمع صراخي في الهاتف، وبادلتني صراخي بدموع الشكر لله الذي لم يخيب رجاء ودعاء السنين. آخر نقود من (بند) الاتصالات من ميزانيتي هاتفت بها صباح الذي قال إنه لم ينقم على كرسيه المتحرك إلا في تلك اللحظة، لرغبته العارمة في أن يقفز من السعادة.. سامي حصل على شهادة إنجليزية.. بل وتفوق على أقرانه.. سامي الذي كان بالأمس يقتات الشابورة والشاي على أرصفة الميناء صباح مساء.. سامي الذي كان يأتيه كل يوم ممزق الثوب مشجوج الحاجب محمر الجبين.. سامي الذي كان يتمنى الموت رحمة من الله.. سامي الذي سامه الجميع سوء العذاب حتى فر من بطش القريب والغريب.. سامي الذي كانت عينا صباح تقطران دموعا تجري على خطاباته التي لم يكن لها حديث عن شيء سوى الجوع والجوع والجوع، حدَّ الألم، وحدَّ أوجاع المعدة، لولا معمول صابرة، تميمة البقاء التي كانت تصنعها السيدة المكّيّة لأصدقاء ولدها اللندنيين، كما أخبرها، ولا تعرف أنه ليس ثم أصدقاء، ليس ثم شيء سوى الجوع..

Twitter: @abdullah_1395

لا تعلم أن كميات المعمول الهائلة التي كان يطلبها بإلحاح دائم إنما هي وجبة الطعام الرئيسية، بل الوحيدة، منذ اليوم العاشر وحتى الثلاثين من الشهر، إلى جوار الشاي المتاح بالمجان في كافتيريا المؤسسة، وأكواب السكر المركزة التي اعتاد أن يسقط فيها عبوات الشاي صباح مساء، ثم يدلقها في فمه وراء قطعتي معمول الصباح، وقطعتي معمول المساء، كيما تحد من آلام الجوع، في برد لندن القارس.. سامي الذي عاش يقتات الشابورة على أرصفة ميناء جدة، ومعمول أمه في غرفته الفقيرة في لندن.. سامي أصدق من صادق صباح، وأحب من أحب، الفقير المطرود من عز أبيه ورحمته، يعود بشهادة من أوروبا تقول للجميع إنه الأفضل..

- هذا والله توفيق ربك يا سامي..

.. توفيق ربك يا حبيبي.. بينما كان يوسف الذي سمع حديثنا على الـ(اسبيكر) يجوب أرجاء غرفة صباح راقصا يأتيني صياحه على الهاتف.

لم يتوقف صباح عن البكاء.. ولم يتوقف خالد عن البكاء وهو يُحكم عليّ حضنه طويلاً، ودموعه تبلل قميصي..

- نجحت يا سامي..؟!

.. نجحت.

بينما كانت نعيمة تتقافز خلفنا:

- يا ويلي يا سامي يا ويلي!

.. الله يعطيك النجاح ديمة يا سامي

.. الله يعطيك النجاح.

كان خالد لا يزال يحضنني:

- ألف مبروك.. هذا فضل الله ثم دعاء الوالدة.

- نجحت يا خالد.. وأبوي ما يدري عني.

Twitter: @abdullah_1395

آه ما كان أجمل النجاح لو أنه كان يدري، لربما كان سامحني.. ولكن علام يسامحني؟ أنا لم أسئ إليه قط.. لم أعقه أبداً.. ويوم اعتراه الصمت فجأة وأنا أنظر إليه مسجى في كفنه.. كنت عائدا لتوي من السفر بعدما جهزوه للدفن.. رجوتهم أن أغسله بيدي مرة أخرى.. بعدما انفطر قلبي من الرجاء وافقوا لي أخيرا أن أمسح على جسده بضع مسحات بالماء قبل أن يلفوا حوله الكفن. مرة أخرى.. قدر أمي أن تغسلك حياً، وقدري أن أغسلك ميتاً.. لماذا لا تتكلم يا سيد جاسر.. لماذا سكت؟!.. صدقني يا أبي.. إني والله أحبك رغم كل شيء.. أحب كل شيء منك.. حتى لو مددت يدك الآن وصفعتني من جديد.. والله سأرضى.. والله سأكون سعيداً.. أرجوك يا أبي افعلها.. اضربني.. اقتلني وضعني في ذلك الكفن وألقني في تلك الغيابة الموحشة وأهلوا عليّ التراب والأحجار.. قم يا أبي.. سامي الذي عاش سنينا يحلم بإرتمائه في حضنك الذي حرم منه عمرا أصبح الآن جديرا بهذا الحضن للمرة الأولى في حياته.. لماذا لا تستقبلني استقبال أب لابنه العائد.. لماذا لا تمتد يداك لمعانقتي يا أبويا جاسر.. لماذا استعجلت الرحيل؟.. كنت قاب قوسين من نظرة الرضا التي حلمت عمري أن أراها في عينيك.. (قوم يا أبويا بالله عليك.. قوم)..

خرجت.. خرجت مرغماً.. نعم خرجت بناء على رغبتي وبطلب مني، ولكنني كنت في داخلي مطروداً.. مطرودا من رحمته وحنوه وإنصافه لي أمام أخي الذي لم يتوقف عن ظلمي.. آه كم تمنيت لو يدري (ولدك سامي رَجّال.. مو أبله.. سامي ناجح.. سامي رفع راسك).. آه كم تمنيت لو باركت لي نجاحي يا أبي.. لقد سامحت الجميع، وحتى فارس أخي سامحته.. قلب صابرة علمني ألا أكره أحدا أبداً.. واليوم بعدما نصرني الله، لم أعد أحمل عداوة في قلبي لأحد.. ولكن أين فارس؟.. كان له عامان مختفيا لا يعلم عنه أحد شيئاً، بعدما سافر إلى المغرب، وسمعنا أنه تزوج هناك.. لكنه لم يعد ليؤكد خبر زواجه أو ينفيه.. الجميع فقدوا اتصالهم به، حتى سفارتنا في المغرب أفادت بأنه مختفٍ في المغرب ولا يعرفون عنه شيئاً.. لا أحد

Twitter: @abdullah_1395

يعرف.

كان علي أن أكتفي بنجاحي الغالي الذي دفعت ثمنه غربة وخوفا وجوعا وعملا مهلكاً.. أكتفي بفرحة إخواني الذين رزقني الله أخوتهم، بعدما انقطعت أخوتي من الرحم.. أكتفي بياسمين.. الأمل الذي يوشك أن يجعل الحياة حولي مُرُوجا أندلسية خضراء، أنطلق فيها سعيدا أنا وكائني الجميل.. كنت أصرخ في أذن ياسمين على الهاتف:

- ياسمين نجحنا.. نجحنا.
- Congratulation Sami

كان لنا زمان لم نتحدث الإنجليزية فيما بيننا.. كنا نتحدث العربية أو الإسبانية.. لم نكن نتحدث الإنجليزية إلا مع الآخرين، فهل أصبحنا آخرَيْن؟

لم يكن صوت ياسمين يوحي بأنها سعيدة بنجاحها أو نجاحي أبداً.. عندما التقينا في مطعمنا العربي المفضل (المنقلة) القريب من محطة أندر جراوند (ماربل آرش).. أخبرتني ياسمين بأنها بعد انتهاء الاختبارات عاودت المداولات مع أبيها بشأن ارتباطنا والبقاء في لندن.. كان الرفض قرارهم الأخير.

كانت ياسمين تبكي، وكنت شاخصاً، ومشاهد الذاكرة التي عادت تطل عليّ بوجهها من جديد تقول لي: "مرحبا بعودتك أيها الفتى الآبق".. ياسمين كانت ترياقي الذي نزع من دمائي سم الصحراء التي كنت فررت من قهرها وخضوعها ولواطها وأجوائها الحارة القاتلة.. ياسمين كانت التميمة التي أقرؤها على هواجسي فيحول دوني ودونها ألف حجاب.. ياسمين، الأحلام التي عرفت طريقها أخيرا إلى رأس صبي الأمس الذي كان الخوف يقد مضاجعه، ياسمين.. نسمة أوروبا الباردة التي لطفت لفح سنوات عمر من العذاب والرهبة والجوع والترقب والحذر والإهانة والحزن

Twitter: @abdullah_1395

والبكاء حد الصراخ، بيد أنه لم يكن ليسمع أحد صراخي..

كان الصراخ مجرماً.. كان علي أن أتلقى الصفعة تلو الصفعة على وجهي وأقف صامتاً، وإلا أتهم بسوء الأدب، ويكون جزائي المزيد من الصفعات.. كنت قد نسيت يا ياسمين.. لماذا بالله عليك؟ لماذا تتركينهم يفعلون ذلك بنا؟.. لماذا لا تكون لك كلمتك الأخيرة؟.. لماذا لا تقولين لهم إن هذا خاص جداً، ولا ينبغي للأهل أن يدسوا أنوفهم فيه بتلك القسوة؟!

I Can't -

عادت تتحدث الإنجليزية مرة أخرى.. عدنا آخرَين جديدَين غريبَين، لا تربطهما سوى لغة المهجر التي لا يربط أحدا بأحد غيرها.

ياسمين كانت تحرص في ذلك اليوم على أن تتحدث الإنجليزية.. كانت تعين ذاكرتها على الهرب من دروس الإسبانية التي أنفقت في تلقيني إياها عاماً، لكنها الآن تحرص على ألا تتحدثها.. ياسمين كانت تستعد مبكرا للرحيل الذي لم يتأخر طويلاً، بينما أنا وقفت مشدوها مذهولا أحملق في الطائرة التي أقلعت بها إلى بلادها، وأحرك لساني على شفتيّ أتذوق نكهة القبلة الأولى والأخيرة التي ظفرت بها من شفتي أنثاي الضائعة.. لم أفكر من قبل في تقبيلها أبداً، ولم تفكر.. لكن كلا منا وجد نفسه بعد الإعلان عن موعد الصعود إلى الطائرة يرتمي في حضن الآخر ويوسعه تقبيلا وبكاء.

دموع ياسمين لا تزال تبلل معطفي حتى الآن.. هنا بعد سنوات خمس مرت، لا أزال أجلس في مكتبي بالرياض، أحملق في طائرة ياسمين التي لا تزال ترتفع في السماء ودموعها تبلل معطفي.. أرد على هواتفي.. أوقع الأوراق.. أعقد الاتفاقات.. أدير الصفقات.. أبتسم.. أقهقه بصوت مرتفع تماما مثل السعداء.. أتحدث إلى الداخلين والخارجين.. أعبس في وجه المخطئين، وألاطف المجتهدين.. أعيش الحياة بصخبها وكذبها.. أتحدث إلى الآخرين وعيناي لا تزالان منذ خمسة أعوام على طائرة ياسمين التي

Twitter: @abdullah_1395

تشق كبد السماء..

كان رحيل ياسمين كفيلا بأن أعلن الهدنة بل الاستسلام لرئيسي المريض بعقدة الذكورة.. التي قدم بها من بلادنا، وكانت جريمتي من وجهة نظره الخاصة جدا، أنني تجرأت وتجاسرت وعاملت سكرتيرته بلطف. أبديت موافقتي على العودة إلى الرياض لتولي منصبي الجديد.. الرجل الذي قضى ثلث عمره في لندن لم يكن أقل فظاظة من موظفي مكتب الجنسية الذين كانوا ينظرون إلى حسام وكأنه ذبابة حطت على شباك أحدهم، هذا إن نظر أحدهم إليه أصلاً.. هؤلاء قدري الذي لم أفلت منه أبداً، وأخيرا عدت إليه، على أي حال فقد كنت أفضل حالا من المسكين الذي كان الانتقال من جدة إلى الرياض بالنسبة إليه مغامرة كبرى ربما لا يعود منها أبداً، ويمضي بقية حياته شيئا مهملا في سجوننا الأخطبوطية التي تمتد أسوارها لتبتلع العابرين في الطريق، خاصة من يضبطون متلبسين بالسواد.

في مطار الملك خالد، لاطفني أحد ضباط الجوازات:

- حمدا لله على السلامة.. إجازة سعيدة.
- كانت عمل.. مو إجازة.
- كم صار لك في لندن؟
- خمس سنين.
- ما شاء الله.. عمر طويل.. وش أجمل شي فيها؟
- راح تصدقني؟
- أكيد.
- معمول أمي.

لم أكن أتصور أن رسالة الشاب الخجول التي أخذتها على استحياء دون أن أعيره اهتماما كبيرا ظنا أنها رسالة اعتيادية، ستكون سببا في عودتي إلى غرفة العناية الفائقة التي لم أبرحها إلا قبيل العيد..

Twitter: @abdullah_1395

.. (أخي الكريم.. اسمح لي هذه المرة أن أرفع الكلفة بيننا، وأناديك بـ(أخي) فلم يحدث أن كان لي أخ يحمل لون بشرتكم.. حاولت كثيرا لكنه لم يحدث.. وأتصور أن إخوتي من أبي الهارب لن يشرفهم أبدا أن يكون لهم أخ أسود.. اعذرني يا سيدي، فقد أحسست برغبة في أن يكون لي أخ منكم، أن أشعر لثانية ولو على الورق أنني أنتمي إليكم دون أن أحتاج إلى إثبات، وشهادة شهود، واعتراف رجل هارب.. على كل حال فقد تحملتَني كثيراً، وأنفقتَ من وقتك الكثير في قراءة تفاهاتي التي لا يتسع لها وقتك، لكنني يا أخي؟، ويا سيدي إذا لم ترق لك كلمة (أخي).. أبشرك بأن رسالتي التي بين يديك في أسطرها الأخيرة وبقية صفحات الرسالة ليست سوى أوراق بيضاء، أوصيك وأستحلفك بالله أن تكتب عليها شهادتك في حقي وتنشرها، لربما يدعو لي أخ صالح بالرحمة والمغفرة، فعندما تنتهي من قراءة رسالتي يا أخي، ستكون آلامي التي وُلدتُ بها قد توقفت أخيراً، ويكون جسدي المعلق في سقف غرفتي في انتظار من يشفقون عليه للمرة الأولى ويحملونه إلى حيث يرقد الجميع سواسية.. العتيبي والسبيعي والهوساوي والتكروني.. وآل.. وآل.. وآل.. إلخ..

أعلم أنني سأكون معذبا حينها، لكن لأني منتحر مثل أي منتحر، وليس لأني أسود.

بالمناسبة.. لقد توصلوا بعد البحث الذي بدأ قبل اثني عشر عاما، عندما كنت مراهقا صغيرا لم أفكر بعد في التخلص من وجودي، إلى أبي الهارب، المدعو السيد ضاري، بيد أنهم في الإمارة أخبروني أن هذا لم يعد يفيدني في شيء، وأن عذاب السنوات الاثنتي عشرة والجوع والتشرد والضياع والفشل من أجل العثور على الرجل المثبت في شهادة ميلادي ضاع هباء؛ فضاري استبدل اسم عائلته باسم مختلف عما هو مدون في شهادة ميلادي، رسمياً، وأنكر وجود أي رابطة تربطه بأمي، وبذلك فَقد الدليلُ الوحيد على أبوته لي مفعوله،

Twitter: @abdullah_1395

وفقدت أنا نصف عمري الماضي، ونصفه الآتي، فلن يكون لي أب، ولو حتى من الأموات.. لن أكون سعوديا ولن أكون شيئا آخر..

وليس من العدالة أن أمضي بقية عمري مطاردا من الشرطة، منبوذا من الناس، سارقاً، زانياً، لوطياً، مزوراً، متسولاً، متهما بكل تهمة فر فاعلها، منتظرا أن يضاف إلى قائمة جرائمي التي لم أرتكبها ما يستجد من جرائم.

أخي.. لقد قررت دفع الثمن الباهظ إلى آخره، ربما أنجح في إسقاط قائمة الاتهام المعدة سلفا لكل من يحملون لون بشرتي، ربما يشعر هؤلاء أننا بشر مثلهم، نشعر، ونتألم، ونسأم الحياة، ونيأس حد الانتحار..)

فشلت محاولة انتحار حسام الذي فقد الأمل في أن يكون مواطنا أو مقيماً أو أي شيء، بعدما ألقت أجهزة الأمن القبض عليه بعدما أمضى أربعة أسابيع هاربا في جحور شارع الستين إثر اعتدائه على أحد أفراد الأمن الذي أخبرني حسام أنه أفرط في إذلاله إلى درجة معايرته بأمه، كان ذلك في إحدى نقاط التفتيش التي فشل أخي الأسود في الفرار بلونه من عيون رجالها المتربصين بكل ما هو أسود.. يبدو أن حالة من الملل في ذلك المساء دفعت الضابط إلى التلهي والتسلي باللعبة الآدمية السوداء التي هبطت عليه من السماء فقرر ملء مسائه بالضحك عليها والسخرية من أقدارها التي ساقتها إليه مفعمة بالاعتذار والتشكي وربما البكاء، لكن مزاح الضابط كان في حاجة إلى قسط من الضحك المتواصل للقضاء على ملل الحياة. حسام الذي أدرك بذكائه الذي لا نتوقعه من رجل أسود أنه أصبح لعبة في يد الضابط أو أضحوكة المساء له ولرفيقه الذي تغيب دقائق لقضاء حاجته ريثما ينتهي الضابط من اللعب ثم يعود لأخذ دوره في اللعب.. الدمية التي فاض كيلها من الجميع قررت أخيرا القصاص للونها المضطهد من الجميع، لمح بعينه سيخا حديديا على مقربة من يده، يقول حسام:

Twitter: @abdullah_1395

..(والله يا أستاذ سامي ما دريت إلا ويدي بتروح على سيخ وبتنزل على راسه.. جلس يتريق على ورقة المشهد اللي أعطيته هيا.. وكمان جلس يضحك من ورقة حقوق الإنسان ويقول: بلها واشرب مويتها).

لم تهدأ ولم تتوقف اتصالات حسام على هاتفي كان أكثر ما يؤلمني قوله دائماً.. (أنت ملاذي يا أستاذ سامي).

لم أكن أصلح أن أكون ملاذا لأحد.. كيف يكون مهزوم ملاذا لمهزوم.. وهب أني استطعت أن أنتشله من أيديهم هذه المرة فكيف أتمكن من ذلك في المرات القادمة.. قدر حسام أن يعيش مطاردا وقدري أنا ومثلي من الرافضين المعترضين والموتورين من كل هذا الظلم أن نقف موقفا مشابها دون أن نقدم لهم شيئاً.

محاولة حسام للانتحار بعدما تمكنوا من القبض عليه، تصدرت صفحات الجرائد.. بالنسبة إلى الجميع لم يكن الأمر يعدو أكثر من خبر محاولة انتحار فاشلة لنزيل أسود، ربما تمنى البعض لو أنها نجحت وتخلصنا من أسود بين آلاف السود مجهولي الأصل والنسب أو ربما يكونون معروفي الأصل والنسب، ونحن نريد لهم أن يظلوا ضمن تلك القائمة المجهولة، لا نريد لهم أن يعترف آباؤهم بأبوتهم.. لا نريد لهم أن تختلط دماؤهم بدمائنا على الأوراق رغم أنها اختلطت بالفعل في أرحام أمهاتهم وأصلاب آبائهم وآبائنا السعوديين، لكن أحدا لا يريد أن يعترف بشيء من ذلك، وبخاصة أولئك الذين ينصبون من أنفسهم حراساً على هذا الدم المختار الذي لا ينبغي له أبدا أن يختلط في قارورة واحدة بدماء العبيد السود.

لم أستطع الصراخ حين اطلعت على الخبر بتصدر الصفحة الأخيرة في الجريدة التي يفترض أني أحد القائمين عليها، لم يكتب شيء داخل الخبر مما كان ينبغي أن يكتب، لم يدن أحد ليس لأنه لا يوجد أحد يدان بل لأن

Twitter: @abdullah_1395

الجميع مدانون، الجميع مجرمون، الجميع مسؤولون عن محاولة الانتحار الفاشلة للفتى الأسود البائس، الجميع يتسترون على الجريمة التي اقترفها كل منهم، ولو بقلبه.

حسام لم يثبت محاولة انتحاره فقط أنه بشر يشعر ويتألم.. حسام.. توأمي المنتحر، أثبت بإنسانية يفتقدها السواد الأعظم منا، أننا لسنا بشراً؛ لأننا لم نشعر به، وربما على رغم هذا كله لن نتألم..

الأطباء يئسوا من إمكان وضع تفسير محدد لنوبات الهبوط التي بدأت تهاجم جسدي بضراوة.. كان أرجح تفسير لديهم أن جسدي يستجيب لهذا السقوط المتكرر..

على أثر تقرير الأطباء وافق رئيس مجلس إدارة المؤسسة أخيرا على طلبي العودة إلى لندن، ثَمّ مطبوعة جديدة تنوي المؤسسة إصدارها هناك، أسندوا إليّ إدارتها.. تقرير الأطباء عن حاجتي إلى فترة نقاهة طويلة أسهم كثيرا في انتزاع توقيع الموافقة من قلم الرجل.

كنت واقفا أنتظر ختم الخروج.. في صالة السفر بمطار الملك خالد الدولي، وفي حقيبتي عدد الصحيفة الذي يحمل نبأ انتحار حسام ابن المدعو ضاري..

..(أستاذ سامي.. أعرف أنني ربما أكون خيبت أملك في، لكنني يا سيدي لست ذلك الرجل الذي يعلّق عليه أمل.. أنا ذلك اليائس المطرود من رحمة العالم.. السكين الموضوعة منذ اثني عشر عاماً على رقبتي توشك على أن تنحرني من الوريد إلى الوريد.. لا أحد يمكنه أن يقدم لي شيئاً.. بل ربما لا أحد يريد أن يقدم لي شيئاً.. لوني الأسود جريمة تتصل منها الجميع.. حتى آخر قاض انتقلت إليه معاملتي.. هل تدري ماذا دار بيني وبينه؟.. ربما لن تصدق.. الرجل من أول وهلة بدا يكرهني كراهية غريبة لا أعرف

Twitter: @abdullah_1395

لها سبباً، ولم يجهد نفسه أبداً في إخفائها.. هل تدري ماذا قال لي؟ قال لي إنني ابن عاق لأنني أسعى لمقاضاة أبي في المحاكم.. أرأيت ما تفعله العدالة بنا في هذه البلاد يا سيدي.. القاضي صاحب البصيرة الذي يملك سيف العدل لم يرَ من كل ما تعرضت له على يد والدي المجرم الجبان الهارب سوى أنني ابن عاق.. أستحلفك بالله يا أستاذ سامي.. هل السيد الهارب ضاري يستحق أن يطلق عليه أباً أصلاً حتى يتهمني القاضي العادل بعقوقه.؟ لماذا رأى القاضي أنني ابن عاق ولم يرَ أن ضاري أب عاق ضيّع من يعولهم، ضاري المدلس الذي غير اسمه ليضيع عليّ حق أن يكون لي أب أكتب اسمه في هويتي، أو يكون لي هوية أصلاً، وضيع وجودي كله بهربه فحكم عليّ أن أعيش ككلب ضال، هذا يلقي إليه عظمة، وهذا يستكثرها عليه فلا يلقيها.. هذا يركله بقدمه، وهذا يدهسه بسيارته.. بالمناسبة يا أستاذ سامي.. ترى لو دهستني سيارة، أو مت من الكمد الذي أعيش فيه.. ترى أين يدفنونني وأنا لا أنتمي لأحد، ولا أحد يعرف لي مقابر أدفن فيها، أم أنني سأبقى في ثلاجة الموتى إلى أن يشاء الله.. فلا كرامة في حياة ولا ممات..؟!

هل تعرف ماذا طلب مني القاضي؟ القاضي لم يعترف بكل الأوراق التي تعذبت وشقيت في جمعها والركض وراءها اثني عشر عاماً؛ لأنها تخص شخصاً اسم عائلته مختلف عما هو مدون في كل هذه الأوراق بينما الشخص الذي أطالب بنسبي إليه له يحمل عائلة أخرى.. القاضي يريدني أن أبدأ الرحلة من جديد.. الرجل قضى على بصيص الأمل الذي لهثت وراءه اثني عشر عاماً، بعدما وضع أمامي صخرة المستحيل الكبرى التي ارتطم بها رأسي.. تخيل!! اثني عشر عاماً يا سيدي يعود الثور الأسود مرة أخرى ليعيد ما بدأه سابقاً مغمض العينين يدور حول نفسه والساقية الكريهة معلقة في عنقه.. اثني عشر عاماً من الشقاء والذل والفقر.. اثني عشر عاما

Twitter: @abdullah_1395

من مطاردات الشرطة ونظرت الاحتقار والشك والريبة.. اثني عشر عاماً تصطادني دوريات الشرطة وأكمنتها كما يصطادون ثعلباً فاراً بدجاجة أحدهم، أو كما يصطادون ذئباً يخشاه أحدهم على زوجه وذريته.. اثني عشر عاماً أفقد كل وظيفة أجدها.. أفقد وجودي كله.. اثني عشر عاماً لا أجد إجابة واحدة لعشرات الأسئلة التي يطرحها عليّ الأصدقاء والجيران ومعلمو المدرسة ورجال الشرطة، عن ذلك الرجل الذي يعتقد الجميع أنني أدعي أنه أبي.. تصور يا سيدي.. الآن أصبحت أنا الذي أدعي.. وأصبح المجرم الهارب ضاري هو البريء المفترى عليه.. أي منطق هذا؟!! وأي مجتمع ذاك الذي نعيش فيه؟!! وأي حياة تلك التي نلهث وراءها كل هذا اللهاث؟!!

لا شك أنني الآن إنسان ضائع.. بل لست إنساناً.. لا أحد يريد أن يعترف حتى بآدميتي.. بحقي في الوجود والنسب إلى هذا الوغد الذي قذف بسائله المنوي في رحم تلك المرأة، ومضى كأنه تبول في مرحاض.. لا أدري ماذا أفعل به أو بها أو بنفسي.. يراودني شعور أن أذهب إليه فأخطفه ثم أنهال عليه صفعاً وركلاً ولكماً في أحد الأماكن المهجورة حتى أتركه جثة هامدة، أن أثأر لسنوات العذاب التي اكتويت بجحيمها ومهانتها، ثم أذهب إلى تلك المرأة التي فتحت له وركيها ليفعل بي ما فعل، فأنحرها ثم أقتلع حنجرتي بنفس السكين.. ما قيمة أي شيء في هذه الحياة؟! ما قيمة أي أحد؟! ما قيمة الإنسانية كلها إذا كانت تنتهك هكذا من الجميع؟! لا أحد ينفعها، حتى القضاء.. فهل تقترح عليّ نهاية أخرى يا سيدي؟! وهل لديك أي إجابة لتلك الأسئلة التي تخنقني حتى في نومي فأقوم فزعاً؟!..).

لم يكن لدي إجابة عن أي من أسئلة حسام.. لم أكن أعرف حتى كيف أقول له: لا تنتحر.. فلم يكن لدي ما يبرر طلبي هذا.. كل ما حوله يدعو

Twitter: @abdullah_1395

إلى الانتحار.. بل إلى نحر كل تلك الرقاب التي صنعت من هذا الآدمي كلباً ضالاً، مهما كان قدر تلك الرقاب.. ولأنني لم أكن أملك إجابات لأسئلة حسام المنتحر الفاشل، ولا حتى إجابات لأسئلتي أنا الرجل الناجح الفاشل!! ولا إجابات لكل الذي أراه حولي وأرفضه حدّ الرغبة في نسفه وقتله ونحره.. كان عليّ أن أغادر.. أن أذهب بعيداً حتى يتغير شيء من هذا، أو أنساه وأنسى العودة إليه.

داعبني الضابط الشاب بعدما تأمل خانة الوظيفة في جواز السفر:

- إجازة سعيدة..
- مو إجازة..
- عمل؟
- مو عمل
- (باستغراب).. طيب مسافر ليش؟!
- لجوء.
- (بفزع).. سياسي؟!
- لا.. إنساني.

تمت

Twitter: @abdullah_1395

ولدت أواخر القرن الهجري الماضي، ورغماً عني وجدتني أعبر الحدود مع العابرين من القرن المنصرم إلى القرن الجديد.. كان كل شيء حولنا يتغير، وكنا نحاول باستماتة ألا نتغير!! مأساتنا الكبرى الآن.. أننا نجحنا.. أننا لم نتغير.

لا أدعي أن هذه محاولة للتغيير.. فقط أحاول فك القيد عن رقبتي ورقبة من شاء من الجيل الجديد؛ لذا لم يكن ثَمّ خيار آخر سوى الوقوف بصراحة. قد تكون صادمة. على معالم هذا الوجع الذي نعيشه؛ حتى نتأكد أن سرطانه لن يسري في جسد أجيالنا القادمة.

اجتهدت قدر الطاقة لرصد موضع الورم.. وأملي أن تمتد أيدينا جميعا لنستأصله معا.. وخوفي أن تمتد أيديكم لاجتثاث العمل، وربما اجتثاثي شخصياً، وتضييع فرصة. ليست الأولى التي تضيع. من أجل نجاح جراحة المستقبل.

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395

Twitter: @abdullah_1395
16.4.2012

لماذا يختلف الوطن هكذا علينا؟.. لماذا يتعدد حولنا؟.. لماذا لا يكون له وجه واحد.. يتطلع فيه الجميع فينتابهم شعور واحد، لا مشاعر شتى، تتراوح بين الخوف منه، أو احتقاره، أو.. ربما.. الاستعلاء عليه؟!!

ISBN 978-9953-87-203-2
9 789953 872032

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت